تداعيات الجدل حول أبى تمام

د . جودة أمين *

ليس من هم هذا البحث الانتصار لأبى تمام - أو الدفاع عنه، فكفانى من تعصب له، ولن يكون من همه تلمس المعايب فى شعره، فكفاه ما دهاه من نقاد هذا الفن ودارسيه .. لكن خطة هذه الأطروحة ترصد - بصفة أساسية - تداعيات الجدل الملتهب بين فئتين متعارضتين، فندتا - فى تلاح وسفسطة - كل عناصر الإبداع الشعرى لدى الرجل.

ولقد استدعت طبيعة الدراسة أن نعرف - أولاً - بالشاعر، ثم نورد - فى إيجاز - بعض المماحكات النقدية ، لندخل - بعد ذلك - فى نتائج هذا الجدل المسئوم حول ابن أوس.

أما قبل ...

فقد يكون من المناسب أن نبدأ أولاً بسؤال عن حياة الرجل .. فمن يكون ذلك الشاعر.. الذى تصارعت حوله الرؤى؟!

* استاذ مساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

إنَّهُ الشَّاعرُ العبَّاسيُّ الفحْلُ ..

الطَّائيُّ ..

أبُو تمَّام ..

حَبيبُ بنُ أوْس(١) بـن الحـارثِ ابن الأشَجِّ بن يَحْيَى ..

عربيٌّ أصيلٌ ، خالصُ النَّسبِ ، مِنْ قبيلةِ طيِّئٍ العربيَّةِ عريقةِ الجُذُورِ.(٢)

ولعلَّ تلكَ السِّمةَ .. هي التِّي جعلَتْ أبا تمَّامٍ مُتعَصِّباً ـ دائماً ـ لعُروبَتِهِ ، لا يرْضَى بها بديلاً ..

وفي ذلكَ .. ما يُرْوى أنَّهُ مرَّ في سرَّمَنْ رأى ـ بجماعةٍ مِنْ مَعارفِهِ وأصدقائهِ ، فجلسَ إليهم يتجـاذَبُون ويتجاذَبُ معهم ـ أطرافَ الأحاديثِ فسألهُ واحدٌ منهم : (٣)

ـ أيُّ رجُلٍ أنتَ .. لـوْ لـمْ تكـنْ منَ اليمَنِ ؟

فأجابَ .. وكأنَّما أدركَ ـ بفطنتِهِ ما يرمي إليهِ السَّائلُ :

---

(١) قيلَ : إنَّ أباهُ كانَ نَصرانيًا ، واسمُهُ : " تَدُوسُ " العَطَّارُ ـ أو العقاقيريّ ، ثُمَّ أسلمَ فأسمَوْهُ " أوْساً " .

راجع : أخبارَ أبي تَمَّامٍ ـ أبو بكرٍ الصَّولي ص ٢٤٦ تحقيق : خليل عساكر وزميليْه الطبعة الثالثة ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠م .

وَفَيات الأعيان ـ ابن خِلِّكان ج١ ص١٥٠ ـ البابي الحلبي ـ مصر ١٣١٠هـ .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي ج٢ ص٢٦١ طبع دار الكتب المصريّة ـ القاهرة سنة ١٩٣٦م .

(٢) كانت قبيلة طيئٍ تنزلُ الجَوفَ منَ اليمنِ ، ثُمَّ صارتْ هجرتُها إلى الشَّمالِ .

(٣) راجع : أخبار أبي تمام ص١٤٧ وما بعدها .

وأحمد بنُ أبي دُؤاد .. فرج بنُ جرير القاضي ، شاعرٌ مُجيدٌ ، وعالمٌ مِنْ علماءِ الكلام ، كانَ معتَزليًّا ، وله القبول عند المأمُون والمعتصم ، كان بينه وبينَ ابن الزّيّاتِ تنافسٌ وشحناء ، ولد بالبصرة سنة ١٦٠هـ ، وتُوفِّي سنة ٢٤٠ هـ .

- ما أحبُّ أنّي بغير الموضعِ الذي اختارهُ اللّهُ لي ..

فمَنْ تُحِبُّ - إذن - أنْ أكونَ ؟!

فقالَ الرَّجلُ :

- مِنْ مُضَرٍ- مثلاً .

فانبرَى أبو تمَّامٍ .. وقد صدقَ حَدْسُهُ - يقُولُ :

- إنَّما شَرُفَتْ مضَرُ بالنَّبيِّ - صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولولا ذلكَ ما قِيسُوا بملُوكِنا ، وفينا كذا .. وفينا كذا ..

وافتخَر .. وتَزَيَّدَ ، وذكرَ أشياءَ عابَ فيها نَفراً مِنْ مُضَرَ .

فلمَّا علِمَ قاضي القُضاةِ - أحمدُ ابنُ أبي دُؤَاد - بتطاولِهِ هذا ، حجَبَهُ عنهُ ، فكتبَ إليهِ يعتذرُ : (٤)

أتاني عاثِرُ الأنباء تسْري
عقاربُهُ بداهيةٍ نآدِ
بأنِّي نِلْتُ مِنْ مُضَرٍ ، وخَبَّتْ
إليكَ - شَكِيَّتي خَبَبَ الجوادِ
لقدْ جازيْتُ بالإحسانِ سُوءاً
إذن وصبَغْتُ عرفَكَ بالسَّوادِ
تَثَبَّتْ .. إنَّ قَوْلاً كانَ زُوراً
أتَى النُّعمانَ - قبلَكَ - عنْ زِيادِ

وُلِدَ حَبيبٌ سنة ١٨٨هـ (٨٠٤م) ، في قريةِ جاسمِ الشاميَّةِ بشمالِ سُوريَّةَ (٥) ، ونشَأَ فقيراً خاملاً ، إذ كانَ أبوهُ عطَّاراً مغمُوراً ، ما يكادُ يُسلِمُ ولدَهُ النَّاشئَ إلى كُتَّابِ القريةِ ، حتَّى ينتزعَهُ منهُ لفقرهِ ؛ ولعدمِ قدرتِهِ على دفعِ أُجرةٍ للمُعَلِّمِ ، بلْ إنَّهُ يُرسِلُهُ إلى حائكٍ - في دمشقَ ليخدمَهُ - صبيًّا لديه .

---

(٤) ديوان أبي تمام ص٨٠ ، ٨١ الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٢م .

(٥) على يمينِ الطريقِ بينَ دمشق وطبريّة ، وإليها يُشيرُ الشاعر عديُّ بنُ الرّقاع :

وكأنَّها - بينَ النّساءِ - أعارَها		عيْنيْهِ أحورُ مِنْ جآذرِ جاسمِ

(راجع : الأغاني - أبو الفرج الأصبهاني ص٢٤٢١ تحقيق: إبراهيم الإبياري - مطابع دار الشعب) .

ومهما يكنْ الأمر.. فمنَ المُؤكَّدِ
أنَّ أبا تَمَّامٍ بـدأ حياتَـهُ فقيراً يَكِدُّ ،
ومُعَنًى يَكْدَحُ ، وعاشَ دنياهُ وحيداً
إلاَّ منَ ابنٍ لهُ فردٍ . (٦)

ولهذا .. نراهُ كثيرَ الحديثِ عن
النَّوَى والفراقِ ، وكثيراً مـا يتَرَدَّدُ
معنَى الرِّحلةِ في شعرِهِ : (٧)

وغَرَّبْتُ حَتَّى لمْ أجِدْ ذكْرَ مَشْرِق
وشَرَّقْتُ حَتَّى قد نَسيتُ المغارِبَا

والحـقُّ .. أنَّ أبـا تَمَّـامٍ كـانَ
وقُوراً محتشماً ، يترفَّعُ عن الدَّنايا ،
مُخلصاً لدينِهِ ، وفيًّا لعرُوبتِهِ ..

لذلكَ .. تَنَدَّر بهِ مُخلَّدُ بنُ بكَّارٍ
المَوصليّ ، فقالَ ساخراً : (٨)

أنتَ - عندي - عربيٌّ الـ
أصلِ ، ما فيكَ كلام
بيْتُـهُ ما بيـنَ سَـلْمَى
وحَوالَـيْهِ سِـلاَم
ولـهُ مِـنْ إرثِ آبـا
ءٍ .. قِسِيٌّ ، وسِهام
ونَـخِيـلٌ باسِـقاتٌ
قدْ دنـاَ منـها صِرام
أنْتَ - عندي - عـربيٌّ
عـربيٌّ .. والسَّلام

(٦) أخبار أبي تمامٍ في أسرتهِ قليلة ، ومنْ قراءة شعرهِ .. ندركُ أنَّ أباهُ فارقَ الدنيا وما يزالُ حبيبٌ في مرحلةِ الطفولةِ ، وكذلك ماتتْ أمّهُ ، وبينَ مراثيه مَرثيَّةٌ في زوجتهِ ، ثُمَّ كان لهُ بنون ماتُوا في حياتهِ ، عدا تَمَّاماً الذي ورثَ الشعرَ عنه ..
ومن شعر الابن تَمَّامٍ .. يهنِّئُ محمدَ بنَ طاهر بتوليةِ خُراسان :

هَنَـاكَ ربُّ المُلكِ .. هَنَـاكَا ما من جزيلِ المُلكِ أعْطاكَا
قَرَّتْ بما أُعطيتَ - ياذا الحِجا والبَاسِ ، والإنعام - عيناكَا
أشْرقَتْ الأرضُ بما نِلْتَهُ وأورقَ العُـودُ لنَجْـواكَـا

(راجع : أخبار أبي تمام ص ٢٦١ .)

(٧) ديوان أبي تمام ص ٢٦ .

(٨) أخبار أبي تمام ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وحينَ نتصفحُ ديوانَ أبي تمَّامٍ لا نُخطِئُ فيهِ تأثيرَ العقيدةِ الشّيعيَّةِ ، لدرجةِ .. أنَّهُ ظَلَّ يعتقدُ ـ وهو ابنُ العصرِ العبَّاسيِّ ـ بأحقيَّةِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ـ وأبنائهِ ـ في الخلافةِ ..

وتأمَّلْ .. إذْ يقولُ تحتَ سَمْعِ العباسيِّينَ وبصرِهم : (٩)

ويومَ الغديرِ استوْضحَ الحقَّ أهلُهُ
بفيْحاءَ ، لا فيها حجابٌ ، ولا سِرُّ
أقامَ رسولُ اللّهِ يَدعُوهُمُ بها
ليقْرَبَهُمْ عرفٌ ، وينأهُمْ نُكْرُ
فكانَ لهمْ جَهْرٌ بإثْباتِ حَقِّهِ
وكانَ لهمْ ـ في بزِّهِمْ حقَّهُ ـ جَهْرُ
أحجَّةَ ربِّ العالَمينَ ، ووارثَ النـ
ـبيِّ ، ألا عَهْدٌ وفيٌّ ، ولا إصْرُ؟!
جَعَلْتُ هوايَ الفاطمِيِّينَ زُلْفَةً
إلى خالقي ما دمْتُ أو دامَ لي عُمْرُ
وكوَّفني دِيني ، على أنَّ مَنْصبي
شآمٌ ، ونَجْري أيَّةً ذُكِرَ النَّجْرُ

ثُمَّ انتقلَ حبيبٌ إلى حِمْص ، ومدَحَ وُجهاءَها ، ويُقالُ إنَّهُ تأثَّرَ فيها بالشاعرِ ديكِ الجنِّ ، بل يزعُمُ المُؤرِّخُونَ أنَّ ديكَ الجنِّ .. أولُ مَنْ غَرسَ في الشَّاعرِ الطَّائيِّ بُذورَ العقيدَةِ الشِّيعيَّةِ .

لكنَّ حياةَ حِمْص الضيِّقةِ ـ نسبيًّا ما كانتْ لِتُرضيَ طُمُوحَ الشَّبابِ في الشَّاعرِ النَّاشئِ ابنِ أوسٍ ، خاصَّةً .. بعدَ أنْ اكتشفَ ـ في نفسِهِ مَواهبَهُ ، فضاقَ بمعيشَتِهِ الضَّنْكِ في الشَّامِ ، وعزمَ على الهجرةِ إلى مِصْرَ ، يَنْشُدُ فيها العلمَ والثَّقافةَ(١٠) وتُراودُهُ أحلامُ الذُّيوعِ والانتشارِ ، ومِنْ ثَمَّ .. الثَّراءَ والجاهَ ..

---

(٩) ديوان أبي تمام ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١٠) كانت مصرُ ـ وقتئذٍ ـ مركزاً علميًا مهمًا ، وفي جامعِ عَمرو بنِ العاصِ نشِطتْ حركةٌ ثقافيَّةٌ مزدهرةٌ ، قادتْها أسماءٌ رنَّانةٌ مثل الإمامِ الشَّافعيِّ ، وابن هشام ، وابن عبد الحكمِ ، وغيرهم منَ المُحدِّثين والمؤرخين ، والفقهاءِ والفلاسفة .

وبالفعل .. نزلَ أبو تَمَّامٍ مِصْرَ حائكاً فقيراً .. صغيراً دونَ السَّابعةَ عشرةَ مِنْ عُمرهِ .

على أيَّةِ حالٍ .. ألْقى الشَّابُ أبُو تمَّامٍ ـ نفسَهُ بمصرَ ، في جامعِ عَمرو بنِ العاصِ ، يحملُ القِرْبَةَ على ظهرِهِ ، يسْقي بها الماءَ ، يتنقَّلُ بينَ مجالِسِ العلمِ مِنْ حلْقَةٍ إلى حلْقَةٍ ، يَتَسمَّعُ ـ آنَذاكَ ـ إلى شيءٍ منَ الأيَّامِ والسِّيَرِ والتَّاريخ ، وشيءٍ من الفقهِ والحديثِ ، وإلى أشياءَ في الفلْسفةِ والشِّعر ، يحفظُ كلَّ ذلكَ .. ويتمَثَّلُهُ .

وكما يقولونَ .. رُبَّ ضارَّةٍ نافعةٍ ، لقد كانَ فقرُ والديْهِ ، وموتُهما مبكِّراً ، وكدحُهُ في الحياةِ ، جبراً له كي يعتمدَ على نفسِهِ ، ثُمَّ كانتْ موهبتُهُ ، وطمُوحُهُ ، مدخلاً حتميًّا للتَّثقيفِ الذاتيِّ .

يروي محمد بنُ قدامةَ : (١١)

دخلْتُ على حبيب بنِ أوسٍ ، وحواليهِ منَ الدفاترِ ما غرقَ فيهِ ، فقلتُ لهُ :

ـ يا أبا تمَّامٍ .. إنَّكَ لَتنظُرُ في الكُتُبِ كثيراً ، وتُدمنُ الدَّرسَ .. فما أصبرَكَ عليهما !!

فقالَ :

ـ واللَّهِ ، ما ليَ إلْفٌ غيرَها ، ولا لذَّةَ لي سِواها ..

وتُشيرُ الدَّلائلُ .. إلى أنَّ أبا تمَّامٍ لمْ يُحقِّقْ في مصرَ ما كانَ يرنُو إليهِ منَ الشُّهرةِ وذيوعِ الصِّيتِ ، والجاهِ والعيشةِ الرَّغدةِ الرَّضيَّةِ ، وذلكَ على الرَّغمِ منَ اكتمالِ نضجِهِ في الشعرِ ، نُضجاً جعلَ شعراءَ مصرَ وقتَئذٍ ـ يحسُدونهُ ، ويكيدُونَ لهُ ، فأوْغروا صدرَ الوُلاةِ ـ والوجهاءِ

(١١) طبقاتُ الشعراء ـ ابن المعتز ص٢٨٤ تحقيق: عبدالستارفرّاج ـ الطبعة الثالثة دارالمعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٧٦م .

عليهِ ، ممَّا اضطرَّهُ أنْ يصرُخ ، فيُصرِّحَ بخيبةِ رجائهِ : (١٢)

لقدْ طلَعَتْ في وجْهِ مِصرَ بوَجْهِهِ
بلا طالِعِ سَعْدٍ ، ولا طائرٍ سَهْلِ

وساوِسُ آمالٍ ، ومذْهَبُ هِمَّةٍ
مُخَيِّمةٌ بيْنَ المَطِيَّةِ والرَّحْلِ

نأيْتُ ، فلا مالاً حَوَيْتُ ، ولمْ أقِمْ
فأمتَع ، إذْ فُجِّعْتُ بالمالِ والأهلِ

ومِنْ ثَمَّ .. نراهُ يُقرِّرُ العودَةَ إلى الشَّامِ سنةَ ٢١٤هـ ، فيمدَحُ بعضَ وُجهائها ، ثُمَّ يُسافرُ إلى خُراسانَ ، بعدَ أنْ كان قد وصلَ إلى قِمَّةِ التَّشبُّعِ الثَّقافي ، وفيها يشغلُ نفسَهُ بالتأليفِ ، ومِنْ هناكَ يقدِّمُ لقارئيهِ أشهرَ مصنَّفاتِهِ ، مِنْ كتُبِ اختياراتِهِ .

وأيًّا ما كانَ الحالُ .. فقد كانتْ نفسُ أبي تَمَّامٍ تَتُوقُ - مثلُهُ في ذلك مثلُ كلِّ الطمُوحينَ مِنْ أصحابِ المواهبِ المُبدِعةِ - كانتْ نفسُهُ تتُوقُ إلى بغدادِ الحضارةِ ، بغدادِ الشُّهرةِ ، بغدادِ الثراءِ والتَّرفِ .. ولمْ تهدأْ مُحاولاتُهُ التَّعَرُّضَ للخليفةِ المأمُونِ ، ومدحَهُ ، وإظهارَ الولاءِ لهُ ، أثناءَ زياراتِهِ المُتكرِّرَةِ لبلادِ الشَّامِ ، وما يزالُ مستمرًّا على ذلكَ .. حتَّى بلغتْ شُهرتُهُ الخليفةَ العبَّاسيَّ المُعتصمَ ، فاستَقدَمَهُ ، فدَخلَ أبُوتَمَّامٍ أرحبَ أبوابِ الذُّيُوعِ والوجاهةِ والتَّألُّقِ ، بل لم يكدْ المعتصمُ يسمَعُ منهُ ، ويعجَبُ بهِ ، حتَّى تسابقَ إليهِ أولُو الأمرِ .. من الوزراءِ ، والأمراءِ ، والأثرياءِ ، طمعاً في مدحهِ ، وأغدقُوا عليهِ الهِباتِ والعطايا ، حتَّى نالَ منَ الثَّراءِ حظًّا وافراً ، ومنَ الاحترامِ والتَّجلَّةِ أمداً بعيداً .

---

(١٢) ديوان أبي تمام ص ٤١٩ .
وانظر شعراً - آخرَ - في هذا المعنى ص ٤٨٢ .

ثُمَّ أرادَ أبُو تَمَّامٍ ـ فـي أخريـاتِ حياتِهِ ـ أنْ ينزِعَ فنَّهُ منَ المديحِ ، ويحفظَ سُمعتَهُ مِنْ شبهاتِ الملَقِ فيهِ ، وابتغى لنفسِهِ أنْ يعيشَ حيـاةً خالصَةً للفنِّ ، أو موجَّهةً للتَّصنيفِ العلميِّ ، فالْتَمسَ مِنْ أصحابِ النُّفوذِ وظيفـةً تناسـبُهُ مستَـقرَّةً ، فـولاَّهُ محمَّدُ بـنُ عبدِ الملكِ الزَّيَّاتِ بريـدَ الموْصِلِ ، فعمِلَ بها سنةً .. ثُـمَّ وضـعَ المـوْتُ نهايـةً سـريعةً لـه ، حيثُ تُوفِّـيَ سـنة ٢٣٢هـ ، ودُفِنَ بالموْصِلِ .

ورثاهُ عددٌ كبيرٌ منَ الشـعراءِ ، منهـم الحَسَنُ بـنُ وهْــبٍ ، الـذي يقولُ : (١٣)

سَقَتْ بالموْصِلِ القَبْرَ الغَريبا
سَحائـبُ .. ينْتَحِبْنَ لهُ نَحِيبا
ولَطَّمَـتْ البرُوقُ لها خُدُوداً
وَشَـقَّقَتْ الرُّعُودُ لها جُيُوبا
فإنَّ ترابَ هذا القَبْرِ يَحْوي
حَبيباً ، كانَ يُدْعى لي حبيباَ
أبـا تَمَّـامٍ الطَّـائيَّ ، إنَّـا
لَقِينا بعدكَ العَجَبَ العَجيبا

وطُوِيَتْ ـ بذلـكَ .. صفحـةٌ مِنْ أزهَـى صفَحـاتِ الفطنـةِ العربيَّـةِ ، والفَنِّ الشِّعريِّ الخالدِ .

***   ***   ***

مذهبُ أبي تمَّامٍ :

أتقليديٌّ هو أمْ محدثٌ ؟!

مهاترةٌ نقديَّة .. بل لعلَّهـا أُولَـى المُماحكاتِ ، وأَوْلاَها بالتَّقديم ..

والحقُّ..أنَّ عظمَةَ أبي تمَّامٍ تَمثَّلتْ في أنَّهُ وقـفَ ـ باقْـتدارٍ ـ على رأسِ اتِّجاهٍ .. كانَ تَجميعاً ذَكيًّا لأَحسَـنِ معطيـاتِ المـاضي الشِّـعريِّ، كمـا كانَ سَدًّا لثغراتِ النقدِ السابقِ عليهِ ،

(١٣) أخبار أبي تمام ص ٢٧٥ .

وتلكَ - في حدِّ ذاتها - إضافةٌ حقيقيَّةٌ ، حُسبتْ لأبي تمَّامٍ ، وسار في ركابها الشّعرُ العربيُّ قرُوناً عديدةً ، حتَّى لقد صارت هاتيكَ المعاييرُ سمَةً مِنْ أعرَفِ سِماتِهِ . (١٤)

إنَّ ثقافةَ أبي تمَّامٍ الواسعةَ ، وإدراكَهُ الواعي لحقيقةِ عصرِهِ ، أعطيا شعرهُ تلكَ الرَّحابةَ المُريحةَ ، وذلكَ العمقَ المَحسُوبَ ، لذا .. كانَ شعرُهُ قليلَ الطَّفراتِ ، إلى الدَّرجةِ .. التي يقُولُ فيها بعضُ النُّقادِ : (١٥)

" إنَّ عقلَ أبي تمَّامٍ - وعلمَهُ فوقَ شعرهِ ... " .

لذلكَ .. قدْ يُدهشُ قارئٌ ، أو يُنكِرُ باحثٌ - أنَّنا سلَكْنا أبا تمَّامٍ في التيَّارِ التَّقليديِّ ، مُتجاوزينَ أنَّهُ مجدِّدٌ ، وأنَّ لهُ مَذهباً في الشّعرِ ، أو مُتناسينَ أنَّهُ صاحبُ بديعٍ ، حتى أنَّ بعضَ النقادِ والمؤرخين .. يُفردُونَ كتباً خاصَّةً يتناولُونَ فيها مظاهرَ التَّجديدِ في شعرِ أبي تمَّامٍ ، بل يغالي بعضُهم .. حين ينظمُونهُ معَ بشَّارٍ - وأبي نُواسٍ - في الخرُوجِ على التَّقاليدِ الفنيَّةِ ، وأعرافِ الشعرِ . (١٦)

حقيقَةً .. لسنا ننكرُ تجديدَ أبي تمَّامٍ ، ولنْ يجرُؤَ باحثٌ ما أنْ يتجاهلَ إكثارَهُ منَ البديعِ والمُطابقِ ، ولكنَّ تجديدَهُ فيما نرَى - كانَ مسبُوقاً إليهِ ..

فإنْ قلْتَ : جَدَّدَ المعاني .. ولَّدها

---

(١٤) انظر : أبوتمام وقضية التجديد في الشعر - د. عبده بدوي ص ١٦٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٥م .

(١٥) راجع : الأغاني ص ٦٢٤٠ .

(١٦) راجع : أبوتمام وقضية التجديد في الشعر ..

والقيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي - د. توفيق الفيل ص ٢٤٩ وما بعدها - مطبوعات جامعة الكويت - الكويت .

توليداً ، وغاصَ وراءَها غوصاً ، فالشّعرُ - قبلهُ - مليءٌ بالأسماءِ التي حاولتْ الابتداعَ في المعاني ، أخفَقَتْ - أو أصابتْ ، ويبْقَى لأبي تمّامٍ أنّهُ يملكُ العراقةَ والتّفتُّح بحيثُ استطاعَ - بمهارةٍ - أنْ يُطَوِّعَ حِسَّهُ المَورُوثَ ليُحولّهُ إلى عنصرٍ جَماليٍّ..

"...، فروحُ الأجدادِ لمْ تكنْ غائبَةً عنْ السباحةِ في عوالمِ أبي تمّامٍ ، ولكنّها لمْ تستطعْ أنْ تَكتُمَ أنفاسَهُ ، أو تُخفِيَ وهَجَهُ ... " . (١٧)

ولئنْ أكثرَ أبو تمّامٍ منْ بديعِهِ .. فإنَّ إغرامَ الشعراءِ بالألوانِ البديعيَّةِ معرُوفٌ منذ العصرِ الجاهليِّ ، وما قَد اشتُهِرَ أبو تمّامٍ بهِ .. لا يعْدُو التّزيُّدَ في بعضِ المُحسِّناتِ ، وإدخالَها عنصرُاً مؤثِّراً في النّسيجِ الشعريِّ ، دونَ أنْ يكُونَ مُخترِعاً لهذا المذْهبِ .

ويسُوقُ صاحبُ المُوازنةِ جدَلَ المُحاورةِ التي دارتْ بينَ أنصارِ أبي تَمّامٍ ، وأنصارِ البحْتُريِّ ، عَلى النّحوِ التّالي : (١٨)

" قالَ صاحبُ أبي تمّامٍ :

فأبو تمّامٍ انفَردَ بمذهبٍ اختَرَعَهُ ، وصارَ فيهِ أوّلاً وإماماً ومَتبُوعاً ، وشُهِرَ بهِ - حتى قيلَ :

هذا مذهبُ أبي تمّامٍ .. وطريقَةُ أبي تمّامٍ ..

وسلَكَ النّاسُ نَهجَهُ ، واقتَفَوا أثَرَهُ ، وهذهِ فضيلَةٌ عَرِيَ عن مثلِها البحتُريُّ.

قالَ صاحبُ البُحتُريِّ :

- ليسَ الأمرُ - في اختراعِهِ هذا المَذهبَ - على ما وصفْتُمْ ، ولا هوَ بأوّلٍ فيهِ ، ولا سابقٍ إليهِ ، بلْ سلكَ في ذلكَ سبيلَ مُسلمِ بنِ الوليدِ ، واحتذَى

---

(١٧) أبوتمام وقضية التجديد في الشعر ص ٢٠٧ .

(١٨) الموازنةُ بينَ الطّائيين - أبو الحسن الآمدي ص١٤ تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد.

حذْوَهُ ، وأفرَطَ وأسرفَ ، وزالَ عنْ النَّهجِ المعرُوف ، والسَّنَنِ المَألوفِ ، وعلى أنَّ مُسْلماً ـ أيضاً غيرُ مُخْترعٍ لهذا المذهبِ ، ولا هوَ أوَّلٌ فيهِ ، ولكنَّهُ رأى هذه الأنواعَ ـ التي وقعَ عليها ـ منثُورةً متفرِّقةً في أشعارِ المتقدمينَ .. فقصدَها ، وأكثرَ منها في شعرِهِ ... " .

ويؤكِّدُ هذا قولُ أبي الفرَجِ : (١٩)

" ... ، ولهُ مذهبٌ في المطابق ، هوَ كالسابق إليهِ جميعَ الشعراء ، وإنْ كانُوا قد فتحُوهُ قبلَهُ ، وقالُوا القليلَ منهُ ، فإنَّ لهُ فضلَ الإكثارِ فيهِ ، والسُّلوك في جميع طُرقِهِ ... " .

ومِنْ ثَمَّ .. فإنَّنا ننظرُ إلى تجديدِ الطَّائي حبيبٍ على أنَّهُ تجديدُ *التَّقليد* إنْ صَحَّ هذا التَّعبيرُ ، هو تحديثٌ حضَريٌّ لمَعَانٍ سابقةٍ ، أو تطويرٌ وتوليدٌ لها ، بحكمِ العصرِ ومُدخلاتِهِ ..

أبو تمَّامٍ ـ إذن ـ كمَنْ يطوِّرُ آلةً مصنوعةً مِنْ قبلُ ، يُدخلُ عليها بعضَ التَّعديلاتِ كيْ يحسِّنَ أداءَها ، فالآلةُ قديمةٌ ، والإصلاحُ والتَّحديثُ داخلٌ عليها ، دُونَ أنْ يُبدِّل جوهرَها ، أو يغيِّرَ مِنْ وظيفَتِها ..

تجديدُ أبي تمَّامٍ في الشعر العربيِّ تجديدُ التَّطوير والتَّحسين ، لا تجديدُ الابتداع والاختراع .

وتأمَّلْ ـ معنا ـ مَليًّا قولَ أبي بكرٍ الصوليِّ : (٢٠)

" ... ، وإنْ كانَ السَّبقُ للأوائلِ بحَقِّ الاختراع والابتداء ، والطَّبعِ والاكتفاء ، وأنَّهُ لمْ ترَ أعيُنُهم ما رآهُ المحدَثُونَ فَشبَّهُوهُ عياناً ، كما لم يرَ المُحدَثونَ ما وَصفُوهُ هم مشاهدةً ، وعانَوْهُ مدَّةَ دهْرهم ، ... ، فهم في هذا ـ أبداً ـ دونَ القدماء ، كما أنَّ القدَماءَ فيما لمْ يروْهُ ـ أبداً ـ دُونَهم .

(١٩) الأغاني ص٦٢٢٧ .
(٢٠) أخبار أبي تمام ص ١٦ .

وفيما فوقَ ذلكَ .. فحبيبُ بْنُ أوْسٍ تُراثيٌّ مُحافظٌ، لم يتَهتَّكْ كأبي نُواسٍ، ولمْ يُتَّهَمْ بالتَّبَجُّحِ كبشَّارٍ، وإنَّما ظَـلَّ طيلَةَ حياتِهِ - صوتاً جَهيراً لحضارتِهِ العربيَّةِ المُسلمةِ، بل ظلَّ شعرُهُ يهتَـمُّ غالباً - بتلكَ الموضوعاتِ المفرُوضةِ منَ الخارجِ، مديحٍ ورثاءٍ، وعتابٍ وهجاءٍ، أيْ أنَّ أبا تمَّامٍ كانَ يـتردَّدُ بيـنَ الأغراضِ التَّقليديَّـةِ النَّفعيَّـةِ، التي تُدِرُّ عليهِ فـائدةً ماديَّـةً مُحقَّقَـةً، حتَّى إنَّ المَديحَ - وحـدَهُ .. ليستولي على ثُلُثيْ شعرِهِ .

وأكثرُ مِنْ ذلكَ .. حينَ جاءَ أبو تمَّـامٍ أعادَ صَولَةَ الوقوفِ على الأطلالِ، وعلى وجهِ الخُصُوصِ - في افتتـاحِ قصائدِ المَديحِ، فمثلاً .. نراهُ يمدحُ أبا الحسنِ بنَ الهيثمِ، فيقُولُ : (٢١)

قِفُوا .. جَدِّدُوا مِنْ عهدِكم بالمعاهدِ
وإنْ هيَ لمْ تسمعْ لنشدانِ ناشدِ
لقد أطـرقَ الرَّبعُ المُحيلُ لفقْدِهم
وبَيْنِهم .. إطـراقَ ثَكْلانَ فاقِدِ
وابقُوا الضيْفِ الحَزنِ مِنِّيَ بعدهُمْ
قِرًى مِنْ جَوًى سارٍ وطيْفٍ معاودِ

وقالَ يمدحُ حُبيْشِ بنَ المُعافَى : (٢٢)

قِفْ بالطُّلُولِ الدَّارساتِ علاثَا
أَضحتْ حبالُ قَطينِهنَّ رِثاثَا
قسَمَ الزَّمانُ رُبُوعها بينَ الصَّبَا
وقَبُولِها، ودَبُورِها أَثْلاثَـا

وقالَ يمدحُ أبا دُلَفٍ العجليّ : (٢٣)

أَمَّا الرّسُومُ فقد أَذكَرْنَ ما سَلَفَا
فلا تَكفَّنَّ عنْ شأنَيْكَ، أو يكفَا

---

(٢١) ديوان أبي تمام ص ١١١ .
(٢٢) المصدر السابق ص ٦٥ .
علاثا : منادَى مرخّم " علاثة " .. وهو اسم صديق الشاعر، أو رفيقه في رحلتهِ .
(٢٣) المصدر نفسه ص ١٨٩ .
شأن العين : مجرَى الدمع فيها .

لَاعُذرَ للصَّبِّ أَنْ يقني السّلوّ ولاَ
للدّمعِ - بعد مضيّ الحَيّ - أنْ يقفاَ

وأَحياناً .. يبدأُ بالطُّلُولِ قصائدَ الهجاءِ ، يقولُ في هجاءِ رَجلٍ يُدعَى الجلوديّ : (٢٤)

صَحْبي ..قفُوا ملّيتكم صَحباَ
فاقضُوا بنا مِنْ رَبعِها نَحْباَ
دارٌ ، كأنّ يدَ الزّمانِ بأنـ
ـواعِ البِلَى نَشَرتْ بها كُتُباَ
أينَ الأُلَى كانُوا بعَقْوَتِها ؟!
والدّهْرُ يسكُبُ ماءَهُ سَكْباَ

فهوَ في هذهِ المقدّماتِ - وفي كثيرٍ غيرِها - يقفُ ويستوْقفُ ، إلى الحدّ الذي دفعَ بعضَ النقادِ إلى القولِ: إنَّ الرَّجُلَ انتكَسَ بالقصيدة العربيَّة .. حينَ أعادَ لها مقدّمتَها الطَّلَليَّةَ ، التي خرجَ عليها أبُو نوَاس ..

وبالغَ بعضُهم فرأى .. أنَّ أبا تمّامٍ أعطَى القصيدةَ العربيَّةَ ذلكَ الشكلَ النِّهائي ، الذى التزمَهُ الشعراءُ مِنْ بعدِهِ قُرُوناً عديدةً . (٢٥)

يقُولُ جوستاف فون جرنباوم : (٢٦)

" ... ، وأنَّ حركةَ التّجديدِ الحقيقيَّة هيَ التي كانتْ في العصرِ العبَّاسيِّ الأوّل ، ولكنْ برزَتْ بعدَ ذلكَ حركَةٌ رَجعيَّةٌ ، حملَ لواءَها أبُو تمّام ، وقد دَعتِ هذه الحركَةُ إلى استجادَةِ المعاني وصقْلِ التّعبير ، وتمِيق الأُسلُوبِ ، وإيثار الأوزان الثّقيلَةِ ... " .

---

(٢٤) المصدر نفسه ص ٥٠٣ .
العَقْوةُ ، والعَقاةُ : الموضع المتسعُ أمام الدارِ - أو المحلّة ، أو حولهما .
(٢٥) تاريخ الشعر العربي حتي آخر القرن الثالث الهجريَ - د. نجيب البهبيتي ص ٤٩١ نشر دار الثقافة - الدار البيضاء سنة ١٩٨٢م .
وانظر: القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(٢٦) دراسات في الأدب العربيّ - جوستاف فون جرنباوم ص ١٤٨ ..
نقلاً عنْ : أبُو تمام وقضيَّة التجديد في الشعر ص ١٧٣ .

ولئنْ كانَ أبُو تمَّامٍ .. يخرُجُ على عمُودِ الشعرِ وقوانينِهِ ، فإنَّ هذا الخرُوجَ المقصُودَ .. كانَ عنْ فِطنَةٍ ودرايةٍ بتقاليدِ اللغَةِ العربيَّةِ ، ورَصْدٍ لطُرُقِ بناءِ شعرِها ، كما كانَ عنْ إدراكٍ ووعْيٍ بمُتطلَّباتِ المُختلطِ الجديدِ ، وحاجاتِ العصُورِ العبَّاسيَّةِ .

كانتْ هذهِ المُخالفةُ - إذن - مَحسُوبَةً للشِّعرِ ، وليسَتْ مَحسُوبَةً عليهِ ، حتى ليقُول الدكتُورُ طهَ حُسيْن : (٢٧)

" ... ، ولسْتُ مُؤمناً - ولمْ أكُنْ في يومٍ منَ الأيامِ مؤمناً - بما كانَ القدماءُ يُسمُّونَهُ عمودَالشعْر ، وقد قُلْتُ غيرَ مرَّةٍ : إنَّني مُعجَبٌ أشدَّ الإعجابِ وأقواهُ بأبي تمَّامٍ وشعرهِ ، وإنْ كانَ القُدماءُ - منَ العُلماء - قد أنكرُوا هذا الشاعرَ وشِعرَهُ ، واتَّهمُوا هذا الشاعرَ بأنَّهُ خالفَ عمُودَ الشعر ، حينَ أكثرَ في قصائدِهِ منَ البديعِ والاستعاراتِ والصورِ التي لمْ يألفْها القدماءُ .. بلْ قلتُ غيرَ مرَّةٍ : إنَّني أُقَدِّمُ أبا تمَّام على شعراءِ العربِ ، لا أستثْني منهم أحداً ؛ لأنَّهُ أحسنَ مُخالفتَهُ لعمودِ الشِّعر ... " .

ومهما يكنْ مِنْ أمرٍ .. فإننا ننظرُ إلى هذا الخلافِ على أنَّهُ مُماحكَاتٌ نقديَّةٌ ، وأنَّنا نَرى أبا تمَّامٍ تقليديًّا في جوهرِهِ ، بيدَ أنَّهُ لبسَ أثوابَ عصرِهِ ، أو ألْبَسَها - بوعْيٍ - شعْرَهُ ، فزها بها ، وزهَتْ بهِ ، ومنْ ثَمَّ .. عَشَتْ عُيُون النَّاسِ ، واختَلطَتْ رُؤاهم ، وافترقُوا بينَ مُؤيِّدٍ ومُعارِضٍ ، واختلفُوا في شعرِهِ .. أجَديدٌ مُحدَثٌ ؟ أمْ تقليديٌّ محافظٌ؟ وما ذلكَ على نقْدِنا بعجيبٍ .

---

(٢٧) مِنْ مقالٍ أدبيٍّ في : صحيفة الجُمهوريَّة المصريَّة - العدد رقم ٢٣٢١ الصادر في القاهرة بتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦٠م .
وانظر : أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٨٣ .

الجَدَلُ وتَدَاعِياتُهُ :

لعلَّ شاعراً عربيًا .. لمْ يحظَ بمثلِ ما نَالَهُ أبُو تمَّامٍ منَ المُماحكةِ والمُهاتَرةِ ، حولَ شخصيهِ وفنِّه ، لهُ أوْ عليهِ ..

لقد تَجادَل النَّاسُ - كلُّ النَّاسِ ، عامَّةً ومُثقَّفينَ - في ابنِ أوسٍ وشعره .. تجادلُوا كثيراً ، بحيثُ يُخيَّلُ للباحثِ أنَّ الجماهيرَ العربيَّةَ ، ونُقَّادَ الشعرِ ، واللغويِّينَ ، في أيَّامِ أبي تمَّامٍ وبعده - وقفُوا فريقَيْنِ مُتواجِهَيْنِ ، متصاولَيْنِ مُتعَصِّبَيْنِ ، فريقاً يناصرُ الرَّجلَ ولو كانَ زُوراً باطلاً ، وفريقاً يُرديهِ في الحضيضِ الأسفلِ ولو كانَ بُهتاناً يفترُونَهُ ، شدٌّ مِنْ هنا ، وجَذبٌ مِنْ هناكَ .. يقول المسعُوديُّ : (٢٨)

" والنَّاسُ في أبي تمَّامٍ بينَ طرفَيْ نقيضٍ ، متعَصِّبٌ لهُ يُعطيهِ أكثرَ منْ حقِّهِ ، ومنحرف عنه معاندٌ له ... " .

وكأنَّ نُقَّادَ تلكَ الفترَةِ .. كانُوا يعيشُونَ في قواقعِ الماضي ، أو على أبصارهم غشاوة ، فلمْ يُدركُوا جُمُوحَ الفترةِ العبَّاسيَّةِ ، وتعَدُّدِ الرُّؤَى فيها ، هم نَسُوا - أو تناسَوْا - أنَّ عصرَ أبي تمَّامٍ كانَ - في مَجْمُوعِهِ - مُترَعاً بالحاجاتِ الرُّوحيَّةِ ، مُلِحًّا - في بعضِ الأوساط على المطالبِ الجسديَّةِ ، متخَطِّياً بجَسارةٍ مُجرَّدَ المُحاكاةِ إلى الابتداع ، ولعلَّ النَّاسَ - وقتئذٍ - كانُوا يُؤمنُونَ بأَنَّ الفنَّ أحلى منَ الحياةِ ، وأنَّ التركيبَ أهمُّ منَ التَّبسيطِ ، وأنَّ الزَّخرفةَ ليستْ حليةً نائيَةً عن الفنِّ ، وإنَّما .. هيَ مِنْ صميمِ البنيَةِ الفنيَّةِ ، " ... ، وإنَّ ما رأوْهُ تَراكماً جماليًّا ، وتعقيداً لغويًّا ، وزخرفةً مَعزُولَةً عن البناء .. كانَ - بلا شكٍّ - يتناسقُ مع الزَّمان ، والمكان ، واللُّغةِ ، والذَّوق ، والخصائص الاجتماعيَّةِ والحضاريَّةِ ... " . (٢٩)

(٢٨) مروج الذهب - المسعودي ج ٧ ص ١٥٣ - المطبعة البهية .
(٢٩) أبوتمام وقضية التجديد في الشعر ص ٦ .

ولقد باتَ المثقفونَ يدركونَ .. أنَّ رُوحَ العصرِ العبَّاسيِّ لمْ تكُنْ لتقُومَ على التَّناغمِ والتَّوافقِ فحَسْب ، وإنَّما كانتْ ترتَسي في بعضِ أركانِها على التَّناقضِ والتَّدافعِ ، ومِنْ ثَمَ .. كـانَ للحياةِ وقعٌ شديدُ الحِدَّةِ ، بـل كـانتْ أَحياناً ـ تتلظَّى وترمي بالشَّررِ ، " ... وهذا .. أَقْرَبُ ما يكُونُ إلى طبيعةِ الشعرِ ، فالشعرُ لا يتغذَّى بالزَّنابقِ ، ثُمَّ إنَّهُ نكدٌ بابُهُ الشَّرُّ ، فإذا دخلَ فيهِ الخيرُ ضَعُفَ ، وأنَّ طريقَهُ إذا دخلَ في بابِ الخيرِ لانَ .. على نحو ما يقُولُ الأصمَعيُّ ... " . (٣٠)

لقد شَهدَتْ أيامُ أبي تمَّامٍ الصِّراعَ يأخُذُ طريقَهُ إلى كلِّ شيءٍ ، صراعاً عِـرقيًّا .. بيـنَ العـربِ والمَوالـي ، وصراعـاً طائفيًّا .. بيـنَ المسـلمينَ ومعتنِقي الدِّياناتِ الأخرَى ، ثُمَّ بقايا صراعٍ قبَليٍّ .. بينَ العربِ المسلمينَ بعضهم بعضاً ، " ... ، ثُمَّ إنَّهُ حـدَثَ انكسـارٌ في الرُّوحِ المُسيطرةِ علـى الأمَّةِ ، فبعدَ أَنْ كانَ التَّأثيرُ الواضِـحُ دولَةٌ بيـنَ العـربِ والفُـرس أساسـاً ، رأيْنا المُعْتصمَ (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) يُساعدُ علـى تضخيم قُـوَّةِ الأتـراكِ داخلَ جهـازِ الدَّولـةِ ؛ ومِنْ هنـا .. يكُونُ الاستعدادُ لتغيير أشياء كثيرةٍ في الحياةِ وفي النَّاس ... " . (٣١)

وفي ضوءِ كلِّ ما ذكرْنا .. يمكنُ الإحساسُ ـ ساعتَئذٍ ـ بالتَّـكاملِ بيـنَ المتناقضـاتِ ، بلْ قد يقـترنُ الجمـالُ بـالقُبحِ ، ويختلـطُ الخـيرُ بالشَّـرِّ ، وتتنافَسُ القُوَى ـ كلُّ القُوَى ـ علـى السِّيادةِ ، ويحاولُ كلُّ تـيَّارٍ احتـلالَ مسـاحاتٍ واسعةٍ فـي أعمـاقِ النَّفسِ البَشَريَّةِ ، وفي التَّكتُّلاتِ الاجتماعيَّة ،

---

(٣٠) المرجع السابق ص ٧ .

(٣١) المرجع نفسه ص ٨ .

وقد ساعدَ هذا على خلقِ حالاتٍ منَ التّشابكِ بين العديدِ منَ المظاهر الحياتيّةِ العاديّةِ ، فكانَ منَ الطّبيعيِّ جدًّا ـ أنْ تُثارَ حولَ الشّاعرِ أبي تمّام الآراءِ ، وتختلفُ الرُّؤى ، وتختلطُ الأمُورُ ، يقُولُ صاحبُ الأغاني :(٣٢)

" ... ، وفي عصرنا هذا .. مَنْ يتعصّبُ فيُفْرِطُ حتّى يُفضّلَه على كلّ سالِفٍ وخالفٍ ، وأقوامٌ يتعمّدُونَ الرّديءَ مِنْ شعرهِ ، فينْشُرونَهُ ، ويطوُونَ مَحاسنَهُ ، ويستعمِلُونَ القِحَةَ والمُكابَرةَ في ذلك ؛ ليقُولَ الجاهلُ بهمْ : إنّهم لمْ يبلُغُوا علمَ هذا ـ وتمييزَهُ إلاّ بأدبٍ فاضل ، وعِلْمٍ ثاقِبٍ ، وهذا ممّا يتكسّبُ بهِ كثيرٌ مِنْ أهلِ هذا الدّهر ، ويجعلُونَهُ ـ وما جرَى مجراهُ مِنْ ثَلْبِ النّاس ، وطَلَبِ معايبهم سَبَباً للتّرفُّع ، وطلباً للرّياسةِ ، وليستْ إساءَةُ مَنْ أساءَ في القليل وأحسنَ في الكثيرِ مُسقِطةً إحسانَهُ ، ولو كثُرتْ إساءتُهُ ثُمَّ أحسَنَ .. لم يُقَلْ لهُ ـ عند الإحسان : أسأتَ ، ولا عند الصّوابِ : أخطأتَ ، والتّوسُّطُ في كلّ شيءٍ أجملُ ، والحقُّ أحَقُّ أنْ يتّبعَ ... " .

ويقُولُ أبوبكرٍ الصّوليُّ : (٣٣)

" ... ، وعجبْت منَ افتراق آراء النّاس فيهِ ، حتى ترَى أكثرَهم ـ والمقدَّمَ في علم الشعر وتمييز الكلام منهم .. يُوفيهِ حقّهُ في المَدْح ، ويُعطيهِ موضِعَهُ منَ الرُّتبةِ ، ثُمَّ يكبُرُ بإحسانِهِ في عينِهِ ، ويقوَى بإبدعِهِ في نفسِهِ ، حتى يُلحقُهُ بعضُهم بمَنْ يتقدَّمُهُ ، ويُفرطُ بعضٌ فيجعلُهُ نسيجَ وَحدِهِ ..

وترَى ـ بعد ذلكَ ـ قوماً يعيبُونَهُ ، ويطعنُونَ في كثيرٍ من شعرهِ ، ويُسندُونَ ذلكَ إلى بعض العُلماء ،

(٣٢) الأغاني ص ٦٢٢٧ ، ٦٢٢٨ .
(٣٣) أخبار أبي تمام ص ٣ ، ٤ .

ويقولونَهُ بالتَّقليدِ والادِّعاء ، إذ لمْ يصحَّ فيهِ دليلٌ ، ولا أجابتهم إليهِ حُجَّةٌ ... " .

ويقولُ أبو الفرجِ : (٣٤)

" ... ، وقدْ فضَّلَ أبا تمَّامٍ منَ الرُّؤساء - والكُبراء ، والشُّعراء - مَنْ لا يَشُقُّ الطَّاعنونَ عليهِ غبارَهُ ، ولا يُدركونَ - وإنْ جدُّوا - آثارَهُ ، وما رأى الناسُ - بعدَهُ ، إلى حيثُ انتَهَوْا إليهِ - في جَيِّدِهِ نظيراً ولا شَكْلاً ، ولولاَ .. أنَّ الرُّواةَ قد أكثرُوا في الاحتجاجِ لهُ وعليهِ ، وأكثرَ مُتعصِّبوهُ الشَّرحَ لجيِّدِ شعرِهِ ، وأفرطَ مُعادوهُ في التَّسطيرِ لرديئِهِ ، والتَّنبيهِ على رَزْلِهِ ودَنيئِهِ - لذكرْتُ منهُ طَرَفاً ، ولكنْ قد أتى - منْ ذلكَ - ما لاَ مزيدَ عليهِ ... " .

ومنَ المتَعصِّبينَ - بشِدَّةٍ - لأَبي تمَّامٍ صاحبُ كتابِ أخبارِهِ ، أبُو بكرٍ الصُّوليُّ ، إذ يقُولُ : (٣٥)

" ... ، ومنزلةُ عائبِ أبي تمَّام وهو رأسٌ في الشعرِ ، مُبتدئٌ لمذهبٍ سلكَهُ كلُّ مُحسنٍ بعدَهُ فلمْ يبلغْهُ فيهِ ، حتَّى قيلَ : مَذهبُ الطَّائيِّ ، وكلُّ حاذقٍ بعدَهُ - يُنسبُ إليهِ ، ويُقَفَّى أثَرهُ - منزلةٌ حقيرةٌ ، يُصانُ - عنْ ذِكرِها - الذَّمُّ ، ويرتَفعُ عنها الوَهدُ ... " .

ومنَ النُّقَّادِ العربِ الذينَ تعَصَّبُوا ضدَّ أبي تمَّامٍ ، ونَسَبُوهُ إلى السَّرقةِ المرزبانيُّ ، الذي دأبَ - في مُوَشَّحهِ على تَعديدِ المآخذَ على الرَّجُلِ ، دونَ أنْ يوَضِّحَها ، أوْ يُتبِعَها ببرهانٍ ، بل قد يحسُّ الباحثُ - في كلامِهِ - بقدرٍ غيرِ قليلٍ منَ النِّقمةِ والحسَدِ للشُّعراءِ المَرمُوقين . (٣٦)

---

(٣٤) الأغاني ص ٦٢٢٩ .

(٣٥) أخبار أبي تمام ص ٣٧ .

(٣٦) راجع : الموشح - المرزباني ص٣١٢ وما بعدها - طبع السلفية - القاهرة ١٣٤٣هـ .

وابنُ عَمَّارٍ ـ مثلُ المرزبانيّ ـ يُؤلِّفُ رِسالةً عنيفةً ، يصبُّ فيها جامَ غضبِهِ على ابنِ أوسٍ ، حتى ليقُولَ في بعضِ تعليقاتِهِ : (٣٧)

" ... ، وتاللَّهِ ، ما يدري كثيرٌ منَ العقلاءِ ما أرادَ أبو تمَّامٍ ، ولا يتكلَّمُ بهذا إلاَّ مَنْ يجبُ أَنْ يُحظَرَ ـ عليهِ مالُهُ ، ويُطالَ ـ في المَارستَان ـ حبسُهُ وعلاَجُهُ ... " .

لقد كانَ أبو تمَّامٍ شاعراً موهُوباً ، وشأنُ الموهُوبينَ في كلِّ عصرٍ ، وفي كلِّ علْمٍ وفنٍّ ، أنْ يُثيرُوا جدالاً ، وأنْ يقسِمُوا الناسَ إلى مُعسكريْنِ ، مُعسكرٍ ينصرُهم ، ومُعسكرٍ يخذُلُهم ، وأنْ يشتدَّ التَّناحُرُ بينَ الطَّائفتيْنِ .

حَرَّكَ حَبيبٌ الطَّائيُّ قضيَّةَ الشعرِ ، وكانَ صدمةً قاسيَةً لهؤلاءِ الذينَ نصبُّوا أنفسهم أوصياءَ على التُّراثِ ، هاهوَ ابنُ الأعرابيِّ .. يُنْشِدُ شعراً لأبي تمَّامٍ ، ثُمَّ يقُولُ : (٣٨)

" إنْ كانَ هذا شعراً .. فما قالتْه العرَبُ باطلٌ " .

ويَروي أبُو عَمْرِو بنُ أبي الحسَنِ الطُّوسِيّ .. يقُولُ : (٣٩)

ـ وجَّهَ بي والدي إلى ابنِ الأعرابيِّ لأقرأَ عليهِ أشعاراً ، فقرَأْتُ عليهِ منْ شعرِ هُذَيلٍ .. ولمَّا كنتُ مُعجباً بأبي تمَّامٍ .. فقد قراتُ عليهِ أُرجُوزتَهُ على أنَّها لبعضِ شعراءِ هُذيل : (٤٠)

وعاذلٍ عذَلتُهُ في عذْلِهِ
فظَنَّ أنِّي جاهلٌ منْ جَهلِهِ

حتى أتمَمْتها .. فأُعْجِبَ بها أيَّما

(٣٧) أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٧٣ .
(٣٨) المُوشح ١٤٦ .
(٣٩) أخبار أبي تمام ص ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٤٠) ديوان أبي تمام ص ٥٣٣ ، ٢٣٤ .

إعجابٍ ، وقالَ :

ـ اكتبْ لي هذهِ .

فكتبْتُها لهُ ، ثُمَّ سألتُهُ :

ـ أحسنَةٌ هيَ ؟!!

فقالَ :

ـ ما سمعْتُ بأحسَنَ منها .

فقلتُ :

ـ إنَّها لأبي تمَّامٍ !!

فظَهَرَ التَّغيُّرُ في وجهِهِ .. وصاحَ مُغْضباً :

ـ خَرِّقْ .. خَرِّقْ .

ويعلِّقُ عبدُاللَّهِ بنُ المُعتزِّ على هذهِ الواقعةِ بقولِهِ : (٤١)

" ... ، وهذا الفعلُ ـ من العلماءِ مُفرطُ القُبْحِ ؛ لأنَّهُ يجبُ ألاَّ يُدفعَ إحسانُ مُحْسِنٍ ، عَدُوًّا كانَ أوْ صديقاً ، وأنْ تُؤخذَ الفائدةُ مِنَ الرَّفيعِ والوَضيعِ ... " .

وهكذا .. جَرَّهم التَّعصُّبُ الأعمَى إلى رفضِ النَّظرِ ـ مجرَّدِ النَّظرِ ـ في شعرِ أبي تمَّامٍ ، يحرِّكُهم ـ في ذلكَ الحسَدُ ـ والحقدُ الأسوَدُ ، بعيداً عن النَّظرةِ العلميَّةِ المَوضُوعيَّةِ ، يَروي محمَّدُ بنُ جابرٍ ، وكانَ متعصِّبًا ـ بحُمْقٍ لابنِ أوسٍ : (٤٢)

ـ أنشَدْتُ دِعبلَ بنَ عليٍّ .. شعراً لأبي تمَّامٍ ، ولمْ أُعلِمْهُ أنَّهُ لهُ ، ثُمَّ قُلتُ لهُ : كيفَ تراهُ ؟!

فقالَ : أحسَنُ منْ عافيَةٍ بعدَ يأسٍ .

فقلتُ : إنَّهُ لأبي تمَّامٍ !!

فقالَ : لعلَّهُ سَرَقَهُ .

ومرَّةً ثانيَةً .. في مجلسِ الحسَنِ ابنِ رجاءٍ ، أخَذَ دِعْبلٌ ـ كعادتِهِ ـ يضعُ مِنْ قَدْرِ أبي تمَّامٍ ، فاعترضَهُ مُتعصِّبٌ مُناوئٌ .. اسمُهُ عصابةُ الجَرْجَرائيُّ ، فقال : (٤٣)

(٤١) أخبار أبي تمام ص ١٧٦ .
(٤٢) الأغاني ص ٦٢٣٥ .
(٤٣) المصدر السابق ص ٦٢٤٢ .

- يا أبا عليٍّ ، اسمعْ منّي ما مدَحَ بِهِ أبا سعيدِ بنَ يُوسُفَ ، فإنْ أنتَ رضيِتَهُ فذاكَ ، وإلاّ وافقتُك على ما تذمُّهُ منهُ ، وأعوذُ باللّهِ فيكَ مِنْ ألاَّ ترضاهُ ، ثُمَّ أنشَدَهُ : (٤٤)

أمَا .. إنَّهُ لولاَ الخليطُ المُودِّعُ
وربعٌ خلاَ منهُ مصيفٌ ومَرْبَعُ

حتَّى إذا بلغَ قولَهُ :

هُوَ السَّيْلُ إنْ واجَهتَهُ انقدتَ طوْعَهُ
وتَقْتَادُهُ - مِنْ جانِبيْهِ - فيَتْبَعُ
ولمْ أرَ نفعاً عندَ مَنْ ليسَ ضائراً
ولمْ أرَ ضُرًّا عندَ مَنْ ليسَ يَنفَعُ
مَعادُ الورَى بعْدَ المماتِ ، وسَيْبُهُ
مَعادُ لنا - قبلَ المماتِ - ومَرجِعُ

قالَ دِعْبلُ :

- لمْ ندفَعْ فضلَ هذا الرَّجُلِ ، ولكنَّكُم .. ترفَعُونَهُ فَوقَ قَدرِهِ ، وتُقَدِّمُونَهُ على مَنْ يتَقَدَّمُهُ ، وتنسبُونَ إليهِ ما قد سَرَقَهُ .

فقالَ عصابةُ :

- إحسانُهُ .. صيَّركَ لهُ عائباً ، وعليهِ عاتباً .

ملاَحاةٌ ، وتَهاتُرٌ ، وجَدَلٌ .. برغمِ أنَّهمْ كانُوا يُدرِكُونَ - بيقينٍ - أنَّهم على غيرِ الحقِّ والهدَى ، يستَوي - في ذلكَ كلاَ الفريقَيْنِ ، المتعصِّبُونَ لهُ ، والمتعصِّبونَ عليهِ .. حتَّى الآمديّ ذلكَ الرَّجُل الذي ننتظرُ منهُ أنْ يكُونَ مَوضُوعيًّا عادلاً ، نُحسُّ بينَ سُطُورِ كتابِهِ : " الموازنةُ بينَ الطَّائيَيْنِ أبي تَمَّامٍ والبُحْتُرِيِّ " ، نُحسُّ أنَّهُ يتحيَّزُ ضدَّ أبي تَمَّامٍ ، وهوَ وإنْ لمْ يُصرِّحْ بذلكَ ، فإنَّ تعبيراَتِهِ تنضَحُ بتحاملِهِ ، استمعْ إليهِ يقُولُ : (٤٥)

(٤٤) ديوان أبي تمام ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٤٥) الموازنة بينَ الطائيين ص ١٠ .

" ... ، ووَجَدْتُ ـ أطالَ اللَّهُ عمرك أكثرَ مَنْ شاهدتُهُ ورأيتُهُ مِنْ رُواةِ الأشعارِ يزعُمُونَ أنَّ شعرَ أبي تمَّامٍ حبيبِ بن أَوْسٍ الطَّائيِّ لا يتعلَّقُ بجيِّدِهِ جَيِّدُ أمثالِهِ ، ورديُّهُ مطرُوحٌ ومرذُولٌ ؛ فلهذا .. كانَ مُختلفاً لاَ يتشابَهُ ، وأنَّ شعرَ الوليدِ بن عُبيدِ البُحتُريِّ صحيحُ السَّبكِ ، حَسَنُ الديباجَةِ ، وليسَ فيهِ سَفْسافٌ ، ولاَ رَدِيٌّ ، ولاَ مَطرُوحٌ ؛ ولهذا .. صارَ مُستَوِياً ، يُشبهُ بعْضُهُ بعْضاً ... " .

وفي مَوضعٍ آخرَ يقُولُ : (٤٦)

" ... ، وإنْ كانَ كثيرٌ منَ الناسِ قدْ جعلَهما طبقَةً ، وذهبَ إلى المساواةِ بينهما ، وإنَّهما لمُختلفانِ ؛ لأنَّ البحتُريَّ أعرابيُّ الشعرِ ، مطبُوعٌ ، وعلى مذهَبِ الأوائلِ ، وما فارقَ عمُودَ الشعرِ المعرُوفَ ، وكانَ يتجنَّبُ التَّعقيدَ ، ومُستكرَهَ الألفاظِ ، ووَحْشيَّ الكَلامِ ، ... ... ؛ ولأَنَّ أبا تمَّامٍ .. شديدُ التَّكلُّفِ ، صاحبُ صنعَةٍ ، ومُستكرَهُ الألفاظِ والمعاني ، وشعرُهُ لاَ يُشبهُ أشعارَ الأوائلِ ، ولاَ على طريقَتِهِم ؛ لما فيهِ منَ الاستعاراتِ البعيدةِ ، والمعاني المُولَّدَةِ ... " .

بل قد يُغلظُ لأبي تمَّامٍ ، ويُوبِّخُهُ ، فيقُولُ : (٤٧)

" ... ، إنَّهُ جاءَ بالجَهلِ على وجههِ ، والحُمقَ بأسرهِ ، والخطأ بعينِهِ ... " .

ولقد تَنَبَّهَ الشَّريفُ المُرتضي .. لما كانَ يُحرِّكُ الآمديَّ مِنْ دوافعَ ساقتْهُ إلى ذلكَ التَّحيُّزَ المقيتِ ، فقالَ : (٤٨)

---

(٤٦) المصدر السابق ص ١١ .

(٤٧) المصدر نفسهُ ص ٩٥ .

(٤٨) راجع : أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٧٠ وما بعدها .

" ... ، إنَّ ما يفعَلُهُ الآمديُّ مِنْ قُبْحِ العصَبيَّةِ .. ومنَ العَصبيَّةِ الظاهرةِ ... " .

ومهما يكنْ مِنْ أمرٍ .. فإنَّ الجماهيرَ العربيَّةَ المُسلمةَ ، كانتْ تدركُ مرامي هذه الحملةِ المسعُورةِ ، وكانتْ تستهجنُ مظاهرَ هذهِ العصبيَّةِ الحمقاءِ ، ولا تُقرُّها ، سواءً كانت مِنْ أنصارِ أبي تمَّامٍ ، أو مِنْ خصُومِهِ ، يُروَى .. أنَّ رجلاً سمعَ عليَّ بنَ الجَهمِ يصِفُ أبا تمَّامٍ ، ويُبالغُ في تَفضيلِهِ ، فقالَ - متَنَدِّراً : (٤٩)

- واللَّهِ ، لو كانَ أبُو تمَّامٍ أخاكَ .. ما زدتَ على مدحكَ هذا !!

فقالَ ابنُ الجَهمِ - مُسَوِّغاً ومُدافعاً :

- إلاَّ يكنْ أخاً بالنَّسبِ .. فإنَّهُ أخٌ بالأدَبِ والدينِ والمَودَّةِ ، أما سمعتَ ما خاطبَني بهِ .. حيثُ يقُولُ :

إنْ يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاءِ .. فإنَّنا
نغدُو ، ونسْري في إخاءٍ تالدِ
أو يختَلفْ ماءُ الوصالِ .. فماؤنا
عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمامٍ باردِ
أو يفْتَرقْ نسَبٌ .. يؤلِّف بيننا
أدبٌ .. أقَمْناهُ مقامَ الوالدِ

وما كانتْ جماهيرُ الشعرِ لتَعبأَ بمثلِ هذهِ الأحكامِ الفَجَّةِ ، أو تُعيرَ هؤلاءِ المتناحرينَ اهتماماً ، الجماهيرُ يعنيها الشعرُ المُوحي ، والفَنُّ المُمتعُ ، ولاَ يعْنيها ما يتشادقُ بهِ هؤلاءِ الفارغُون .

وإحساساً مِنْ بعضِ الجدلِينَ أنَّهم على غيرِ الحقِّ .. نجدُ بعضَهم يتراجعُ عنْ عنادِهِ ، ويعترفُ بالحقِّ الواضحِ ..

يُروَى .. أنَّ دِعْبلاً دخلَ على الحسنِ بنِ وهبٍ - بعد موتِ أبي تمَّامٍ ،

---

(٤٩) الأغاني ص ٦٢٣١ .
وانظر : أخبار أبي تمام ص ٦١ ، ٦٢ .
ديوان أبي تمام ص ٨٦ .

فعابثَهُ أحد الجلُوسِ ـ قائلاً : (٥٠)

ـ يا أبا عليٍّ ، أنتَ الـذي تطعَنُ على مَن يقُولُ :

شَهِدْتُ ، لقد أقْوَتْ مغانيكمُ بَعْدي
ومَحَّتْ..كما مَحَّتْ وشائعُ مِنْ بُرْدِ
وأنجدْتُمُ .. مِنْ بعد إتهامِ دارِكُمْ
فيا دَمْعُ أَنجدْني على ساكني نَجْدِ

فصاحَ دِعبلٌ : أَحسَنَ واللهِ .. وجعلَ يُرَدِّدُ :

فيا دَمْعُ أَنجدْني على ساكني نَجْدِ
فيا دَمْعُ أَنجدْني على ساكني نَجْدِ

ثُمَّ قال : رحِمَ اللَّهُ أبا تمَّام ، لو تركَ لي شيئاً مِنْ شعرهِ .. لقلتُ : إنَّهُ أشعرُ الناس :

وكانَ أبُو العبَّاسِ ـ أحمدُ بنُ يزيدَ النَّحوي جدِلاً مُشاكساً ، متعَصِّباً ضدَّ أبي تمَّام ، لا يذكُرُهُ بخيرٍ ، فقيلَ له :

ـ ضعْ في نفسكَ مَنْ شئتَ منَ الشعراءِ ، ثُمَّ انظر .. أَيُحْسِنُ أنْ يقُولَ مثْلَ ما قالَ أبُوتمَّامٍ : (٥١)

شَهِدْتُ ، لقد أقْوَتْ مغانيكمُ بَعْدي
ومَحَّتْ..كما مَحَّتْ وشائعُ مِنْ بُرْدِ
وأنجدْتُمُ .. مِنْ بعد إتهامِ دارِكُمْ
فيا دَمْعُ أَنجدْني على ساكني نَجْدِ
كريمٌ متى أمدَحْهُ أمدَحْهُ والورَى
معي ، ومتى ما لمتُهُ لمتُهُ وحْدي

فقالَ أبُو العبَّاسِ :

ـ ما سَمعْتُ أحسنَ مِنْ هذا قط .. وما يهضمُ هذا الرَّجلَ حقَّهُ إلاَّ أحدُ رجلَين .. إمَّا جاهلٌ بعلمِ الشعرِ ومعرفةِ الكلامِ ، وإمَّا عالمٌ لمْ يتَبحَّرْ شعرَهُ ولم يسمعْهُ .

---

(٥٠) أخبار أبي تمام ص ٢٠٢ .
وانظر : ديوان أبي تمام ص ١٢٠ .

(٥١) أخبار أبي تمام ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
وانظر : ديوان أبي تمام ص ١٢٠ وما بعدها .

ويُعلِّقُ ابنُ المعتزّ على ذلكَ فيقُول :

ـ وما ماتَ أبُو العبَّاسِ النَّحويُّ إلاَّ وهو متنَقِّلٌ عنْ جميعِ ما كانَ يقُولُهُ ، مقرٌّ بفضلِ أبي تمَّامٍ وإحسانِهِ .

وقدْ يحسُنُ أنْ نختمَ بما يُقِرُّ بـهِ الآمِديُّ ـ صَراحَةً ـ مـنَ الإفـراط الممقُـوتِ ، والغلـوِّ الطـائشِ ، مِـنْ كلا الفريقينِ ، معَ ضرُورةِ التَّذكيرِ بمـا سبقَ أنْ أكدْنـا عليـهِ ، مِـنْ أنَّ الآمـديَّ مُتعَصِّــبٌ فــي انحيــازه للبحـتريِّ علـى حسـابِ أبــي تمَّــام ، استمعْ إليـهِ .. ينتقـدُ ذلكَ الجَـدَلَ حولَ الطَّائيِّ ابن أوسٍ : (٥٢)

" ... ، وأفْرطَ المُتعصِّبُونَ لهُ في تفضيلِهِ ، وقدَّمُوهُ على مَنْ هوَ فوقَهُ ، مِنْ أجل جيِّدِهِ ، وسامَحُوهُ في رديئهِ ، وتجاوَزُوا عنْ أخطائِهِ ، وتأوَّلُوا لهُ التَّأويلَ البعيدَ فيهِ .. وقابلَ المُنحرفونَ عنهُ إفراطاً بإفراطٍ ، فبخسُوهُ حقَّهُ ، واطَّرحُوا إحسانَهُ ، ونعَـوْا سَيِّئاتِهِ ، وقدَّمُوا عليهِ مَنْ هوَ دُونَهُ ، وتجـاوزَ ذلكَ بعضُهم إلى القدح في الجيِّدِ مِـنْ شعرهِ ، وطعَنَ فيما لاَ يُطعنُ عليـهِ فيهِ ، واحتَجَّ بما لاَ تقُومُ حُجَّةٌ بهِ ...".

*** *** ***

تَدَاعياتُ الجَدَلِ :

أوَّلاً ـ حَولَ حياتِهِ الخاصَّةِ :

لقد كانَ مِنْ تداعياتِ هَذا الجدَلِ المحمُومِ أنْ زرَعَ المُتعَصِّبُونَ حقُولَ الشَّكِّ في كلِّ شيءٍ يتَّصلُ بأبي تَمَّامٍ ، ولمْ تنجُ حياتُهُ الشَّخصيَّةُ مِنْ شطَحاتِ سِهامِهم ، فنالَتْ منْ أصلِهِ ونسبِهِ ، ومِنْ دينِهِ وخلُقِهِ ، بعيداً عنْ بوَّاباتِ الفَنِّ والشِّعرِ ..

١ـ الأصلُ والعِرقُ :

أعرَبيٌّ أبُو تمَّامٍ ؟!
أمْ رُومِـيٌّ ؟!
أمْ نبَطـيٌّ ؟!

(٥٢) الموازنة ص ١٢٥ .

وقفَ فريقٌ منَ الجَدلينَ لأبي تمَّامٍ بالمرصادِ، وتمنَّتْ نفوسُهم الحاقِدَةُ أَنْ تسلُبَهُ أَعَزَّ ما كانَ يفخَرُ بهِ، جنسيَّتَهُ العربيَّةَ، ومنْ ثَمَّ .. شَنَّعَ المُتعصّبُونَ عليهِ منهم - بأنَّهُ غيرُ عربيٍّ، غيرُ عربيٍّ وكفى، ولا يَهُمُّ ما وراءَ ذلكَ، ولذا نجدُهم يختَلِفُونَ فيما بينَهم حولَ أصلِهِ، فقيلَ: إنَّهُ نبَطيٌّ جاسميٌّ، استمعْ إلى تكذيبِ الشاعر الموصليِّ .. مُخلَّدِ بنِ بكَّارٍ للقائلينَ بهذا الرَّأي : (٥٣)

أنا ما ذَنْبيَ ؟! إنْ خا
لَفني - فيكَ - الأنامُ؟!
وأتَتْ منْكَ سَجايَا
نَبَطِيَّاتٌ لِئامُ
ثُمَّ قالُوا : جَاسِميٌّ
مِنْ بني الأنباطِ .. خامُ
كذَبُوا .. ما أنتَ إلاَّ
عَرَبيٌّ .. ما تُضامُ

فيرُدُّ أبُو سُليمانَ الضَّريرَ .. على مُخلَّدُ بنُ بكَّارٍ قولَتَهُ : (٥٤)

لَو امْتَخطْتَ وَبْرَةً - وضَبَّا
وامْتَشَّتَ اليَربُوعَ نِيًّا صُلْبَا
وامتصَّتَ الحنظَلَ غضًّا رَطباَ
ولمْ تَذُقْ ماءً نُقاخاً عَذْباَ
ما كُنْتَ إلاَّ نَبَطيًّا قَلْباَ
لوْ نَقَرَ الصَّخْرَ أفاضَ غَرْباَ

بل لقدْ وصلَت مَوْجَةُ الشَّكِّ هذه .. إلى دارسي العصرِ الحديثِ - فنجدُ الدكتور طَهَ حُسيْن يُشيرُ إلى أنَّ أباتمَّامٍ مِنْ أصلٍ رُوميٍّ ؛ لأنَّ اسمَ أبيهِ يُونانيٌّ (٥٥)، ونظَنُّ الأستاذَ العميدَ يُتابعُ أستاذَهُ مَرْجليُوث Margoliouth،

(٥٣) أخبار أبي تمام ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٥٤) المصدر السابق ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
(٥٥) مقدمة كتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر ص٩ - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
وانظر: مقالاً عنْ أبي تمام في كتاب : " مِن حديث الشعر والنثر" للدكتور طه حسين .

الذي يؤكدُ أنَّ حَبيباً .. كانَ نصرانيًّا منْ أهلِ جاسمَ ، ثُمَّ أسلمَ . (٥٦)

٢ـ الدينُ والخُلُقُ :

ومنْ تَداعياتِ الجدلِ .. التي تَمسُّ حياةَ أبي تمَّامٍ الشَّخصيَّةَ ، ولاَ علاقَةَ لها بأَدبٍ ولاَ نقدٍ ، قضيَّةُ الدِّينِ والعقيدَة ، حتَّى لقد وصَلَ بهمْ الأمرُ.. إلى أَنْ رَمَوهُ بالمُروقِ والكُفرِ، بلْ حَقَّقُوا خُرُوجَهُ عنْ ملَّةِ الإسلامِ ، وقد احتَجُّوا ـ لذلكَ .. بقَولِ أحمد بنِ أبي طاهرٍ : (٥٧)

" ... ، دَخَلْتُ على أبي تمَّام وهو يعْمَلُ شِعراً ، وبينَ يديْهِ .. شِعرُ أبي نُوَاس ، ومُسلم ، فقلْتُ لهُ :

ـ ما هذا ؟!

فقالَ :

ـ اللاَّتُ والعُزَّى .. وأنا أعبدُهما مذ ثلاثينَ عاماً ... " .

يقُولُ الصُّولي : (٥٨)

" ... ، وهذا ـ إذا كانَ حقًّا ـ فهوَ قَبيحُ الظَّاهر ، رديءُ اللَّفظِ والمَعنَى ؛ لأنَّهُ كلاَمُ ماجنٍ مَشغُوفٍ بالشعر... ".

وجعَلُوا كُفْراً اختلَقُوهُ سبباً للطَّعنِ على شعرِ أبي تمَّامٍ ، وتقبيحِ حسَنِهِ ، وما ظَننْتُ أنَّ كُفراً يَنقُصُ مِنْ شعرٍ ، ولا أنَّ إيماناً يَزيدُ فيهِ .

ويرَى بعضُ الجدلينَ .. أنَّ أبا تمَّامٍ ما كانَ ـ منذُ أوَّلِ نشأتِهِ ـ عربيًّا ولا مُسلِماً ، فقد كانَ أبُوهُ ـ فيما يزعُمُونَ نَصرانيًّا مِنْ قريةِ جاسمِ الشاميَّةِ ، واسمُهُ تَدُوسُ العطار ـ أو العقاقيري ، ولعلَّهُ .. اسْمٌ مِنْ أسماءِ نَصارَى

(٥٦) دائرة المعارف الإسلامية ج٦ ص ٣٨ ـ طبع دار الشعب ـ القاهرة .
(٥٧) أخبار أبي تمام ص ١٧٣ .
(٥٨) المصدر السابق ص ١٧٢ .

السُّريانِ ، ولحقَتْ النَّصرانيَّةُ ابنَ تَدوسَ تَبَعاً - فيما يرى الأب لويس شيخو اليسُوعيّ ، وقد يستأنسُونَ لذلكَ بأنَّ اسمَ حبيبٍ شائعٌ لدَى النَّصارَى ، نادرٌ لدَى المُسلمينَ . (٥٩)

وقد يعترِفُونَ بإسلامِهِ ، لكنَّهم يتَّهمُونَهُ بالزَّندقةِ ، والعبثِ بفرُوضِ الدِّينِ ، يروي الحسنُ بنُ رجاءٍ : (٦٠) أنَّ أباهُ رأى أبا تمَّامٍ - يوماً - يُصلِّي صلاةً خَفيفَةً ، فقالَ لهُ :

- أَتمَّ يا أبا تمَّامٍ ..

فلمَّا انصرفَ مِنْ صلاتِهِ قالَ لهُ :

- قِصَرُ المالِ ، وطُولُ الأملِ ، ونقصانُ الجِدَةِ ، وزيادة الهمَّةِ ، يمنعُ مِنْ إتْمامِ الصَّلاةِ .. لا سيَّما ونَحنُ سفْرٌ .

فكانَ أبي يقُولُ :

- ودِدْتُ أنَّهُ يُعاني فُرُوضَهُ كما يُعاني شعرَهُ ، وأنِّي مُغْرَمٌ .. ما يثقُلُ غُرْمُهُ .

وزَيَّنَ لهم تآمرُهم العَابِثُ أنْ يُلصِقُوا بهِ فاحشَةَ الزِّني ، ومعَ مَنْ ؟! معَ أمِّ تلميذِهِ - وصديقِهِ - البحتُريِّ الطَّائيِّ ؛ ذلكَ .. لكي تكونَ التُّهمةُ أشنعَ ، والفاحشةُ أقبحَ ..

يروُونَ .. أنَّ أبا تمَّامٍ راسلَ أُمَّ البحتُريِّ في التَّزويجِ بها ، فأجابتْهُ ، وقالتْ :

- اجمعْ النَّاسَ للإملاكِ ..

فقالَ لها :

- اللَّهُ أجلُّ مِنْ أنْ يُذكَرَ بيننا ، ولكنْ نتماسحُ ونتسافحُ ..

فكانَ معها بلاَ نكاحٍ . (٦١)

---

(٥٩) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ج٢ص٧٢ هامش - ترجمة عبد الحليم النجار الطبعة الثالثة - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٤م .

(٦٠) أخبار أبي تمام ص ١٧٢ .

(٦١) المصدر السابق ص ٢٤٦ .

ثانياً - حولَ السَّرقةِ الشّعريَّة :

" والسَّرقاتُ الأدبيَّةُ " .. مصطلحٌ ليكَ - كثيراً - بينَ النقّادِ ومُدَّعي الأدَبِ حتّى تَهرّأ لفظُهُ ، واهتزَّ مضمُونُهُ ، وأصابَ مفهُومَهُ الكثيرُ منَ اللّغطِ واللّغوِ ، وقد عجزَ الدّارسُونَ الجادُّونَ القُدامى والمُحدثُونَ - عنْ وضعِ معيارٍ مُحدَّدٍ لما يمكنُ أنْ يُسَمَّى سَرقةً ، وفشِلَتْ مُحاولاتهم - في ذلكَ - فشلاً بيِّناً ، وهم حقيقَةً - معذورُونَ ، حيثُ يصعُبُ - إنْ لم يكنْ مُستحيلاً - رسمُ حواجزَ ضابطةٍ يمكنُ الوُقُوفُ عندَها ، فما تُسَميهِ سَرقةً .. يُسمِّيهِ غيرُكَ مشتركاً معنويًّا ، والمعاني مطرُوحةٌ - هكذا في الطريقِ - بلا تَحَرُّجٍ ، ومُتداولةٌ - مِنْ غيرِ حَجْرٍ بينَ الشعراءِ ، فقط يتفاوتُونَ في قدرَتِهم على التَّعبيرِ عنْ هذه المعاني ، بالصُّورَةِ المُوحيَةِ ، واللّفظِ البَديعِ .

لذلكَ .. ثارَ الجَدلُ حولَ أنصارِ أبي تمَّامٍ وأنصارِ البحتُريِّ حولَ هذا المفهومِ - المستعصي على التّحديدِ..

يقُولُ أصحابُ أبي تمَّامٍ : (٦٢)

" أفتُنْكِرُونَ كثرَةَ ما أخذَهُ البُحتُرِيُّ مِنْ أبي تمَّامٍ ؟! وإغراقَهُ في الاستعارَةِ مِنْ معانيهِ ؟!

فيردُّ صاحبُ البُحتُرِيِّ :

" أمَّا ادعاؤكم .. كثرة الأخْذِ مِنْ أبي تمَّامٍ ، فإنَّهُ غيرُ مُنكَرٍ أنْ يكُونَ قدْ أخذَ منهُ ، مِنْ كثرَةِ ما كانَ يردُ على سَمْعِ البُحتُرِيِّ مِنْ شعرِ أبي تمَّامٍ ، فيتعلَّقُ معناهُ ، قاصداً الأخذَ ، أو غيرَ قاصدٍ ، وغيرُ مَعيبٍ لشاعرَيْنِ مُتناسبيْنِ ، أنْ يتَّفقا في كثيرٍ منَ المعاني ، لاسيَّما ما تقدَّمَ النَّاسُ فيهِ ، وتردَّدَ في الأشعارِ ذكرُهُ ، وجرَى في الطِّباعِ والاعتيادِ استعمالُهُ .

---

(٦٢) الموازنة ص ٥٩ .

ولعَلَّ أبا تمَّامٍ ـ نفسَهُ .. قدْ أدركَ أنَّ التَّعبيرَ عنْ المعنَى السَّابقِ بطريقةٍ عصريَّةٍ غيرُ مُنكرٍ ، ولا يدخلُ فـي بابِ السَّرقاتِ ، يروي الصُّولي: (٦٣)

أَنْشَدَ غُلامُ أَبي تمَّامٍ .. أحمدَ بـنَ أبي دُؤادٍ :

لقدْ أَنْسَتْ مَساوئَ كلِّ دَهْرٍ
محاسـنُ أَحمدَ بنَ أبي دُؤادِ
وما سافَرْتُ في الآفاقِ إلاَّ
ومنْ جَدْواكَ راحلَتي وزادي
مُقيمُ الظَّنِّ عندكَ والأماني
وإنْ قلِقَتْ ركابيَ في البلادِ

فقالَ ابنُ أبي دُؤادٍ :
ـ يا أبا تمَّامٍ ، أهذا المعنَى الأخيرُ ممَّا اختَرعتَهُ !! أو أخذتَهُ ؟!
فأجابَ أبُو تمَّامٍ :
ـ هوَ لي ، وقد ألمَمْتُ بقول أبي نُواسٍ:

إذا نحـنُ أثنيْنا عَليكَ بصالِحٍ
فأنتَ كما نُثْـني وفوقَ الذي نُثْـني
وإنْ جَرَتْ الألفاظُ يوماً بمدحَةٍ
لغيركَ إنساناً ، فأنتَ الذي نَعْني

وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ .. فمنَ التَّمحُّلِ وسَيِّئِ الجدَلِ توجيهُ هذا السَّيلِ الجارف منَ الاتِّهاماتِ بالسَّرقةِ لأبي تمَّامٍ ، ممَّا لاَ حَقَّ للنُّقَّادِ فيهِ ، فهي لاَ تدخلُ إلاَّ مِنْ بـابِ المُهـاترتِ السَّخـيفةِ ، التـي لاَ تصدُرُ إلاَّ عنْ أناسٍ فارغينَ ..

وقد جاهدَ الآمديُّ تَحَيُّزَهُ ، وحاولَ أنْ يُخفِّفَ مِنْ غلواءِ التَّعصُّبِ الجامِحِ ضِدَّ أبي تمَّامٍ في موضُوعِ السَّرقاتِ ، فقالَ ـ مفنِّداً زَعمَ خصُومِ الرَّجلِ: (٦٤)

"... ، وممَّا نسبَهُ فيه ابنُ أبي طاهر

---

(٦٣) أخبار أبي تمام ص ١٤١ ، ١٤٢ .
وانظر : ديوان أبي تمام ص ٨٠ .
(٦٤) الموازنة ١١٤ .

إلى السَّرَق ما ليسَ بمسرُوق ؛ لأنَّهُ ممَّا يشتركُ فيهِ النَّاسُ منَ المعاني ، والجاري على ألسِنَتِهم ، قولُ أبي تمَّامٍ:

ألمْ تمُتْ يا شقيقَ الجُودِ مِنْ زمَنٍ؟!
فقالَ لي: لمْ يمُتْ مَنْ لم يَمُتْ كَرَمُهُ

وقالَ أخذَهُ مِنْ قولِ العتَّابيِّ :

رَدَّتْ صنائعُهُ عَليهِ حَياتَهُ
فكأنَّهُ - مِنْ نشرِها - مَنْشُورُ

ومثْلُ هذا .. لاَ يُقالُ لـهُ مَسرُوقٌ ؛ لأنَّهُ قد جَرى في عاداتِ الناس - إذا ماتَ الرَّجُلُ مِنْ أهل الخيرِ والفضل ، وأُثْنِيَ عليهِ بالجميل - أنْ يقُولُوا : ما ماتَ مَنْ خَلَّفَ هذا الثَّناءَ ، ولا مَـنْ ذُكِرَ بهذا الذِّكر، وذلكَ شائعٌ في كلِّ أُمَّةٍ ، وفي كلِّ لسان ... " .

ويقُولُ أبُو تَمَّامٍ :

لوْ يعلمُ العافُونَ كمْ لكَ في النَّدَى
مِنْ لَـذَّةٍ - أو فَرحَةٍ - لمْ تُحْمَدِ

قالُوا : أخذَهُ مِنْ قولِ بشَّارٍ :

ليسَ يُعطيكَ للرَّجاءِ ولاَ الخَو
فِ ، ولكنْ يلَذُّ طعمَ العطاءِ

يُعلِّقُ الآمديُّ - على ذلكَ - فيقُولُ:(٦٥)

" ... ، وما إخالُهُ احتذَى في هـذا البيتِ على قَول بشَّار؛ لأنَّ بشاراً قال ليسَ يُعطيكَ في جزاءٍ يرجُوهُ ، ولكنْ لالْتذاذِهِ العطيَّةَ .. وأرادَ أبُو تمَّـام أنَّ الطَّالبينَ لوْ علمُوا الْتذاذَه لمْ يحمدُوهُ ، والمعنيان إنَّما اتَّفقَا في طريق الْتـذاذِ الممدُوحِ بعطائهِ فقط ، وهذا ليسَ مِنْ بديعِ المعاني ، التي يختصُّ بها شاعرٌ، فيقالُ : إنَّ واحداً أخـذَهُ مِنَ الآخـرِ؛ لأنَّ العادةَ جاريَةٌ بأنْ يقالَ : فُلانٌ لا يُعطي مُتكارهاً ولا متكلِّفاً ، بل يُعطي عـنْ نيَّـةٍ صادقَـةٍ ، ومحبَّـةٍ لبـذل المعروفِ تامَّةٍ ... " .

وغيرهذا - ممَّا أوردَهُ الآمديُّ في موازنتِهِ - كثيرٌ كثيرٌ .

(٦٥) المصدر السابق ص ١١٥ .

لكنَّهُ الفجُورُ في الخُصُومةِ ..
والتَّعصُّبُ المقيتُ ، الذي يسدُّ منافذَ
الإنصافِ ، ويخرسُ عنْ قولِ الحقِّ ،
يروي أبُو الفرجِ .. أنَّ هارُونَ المهلَّبيَّ
قالَ : (٦٦)

" ... ، كنَّا في حلقَةِ دِعْبِلٍ ، فجرَى
ذكرُ أبي تمَّامٍ ، فقالَ دِعْبِلٌ :

ـ كانَ يتتبَّعُ معانيَّ .. فيأخذُها .

فسألَهُ أحدُ الحاضرينَ :

ـ وأيُّ شيءٍ مِنْ ذلكَ .. أعزَّكَ
اللَّهُ ؟!

فردَّ دِعْبِلٌ :

ـ مثل قولي :

وإنَّ امرأً .. أَسْدَى إليَّ بشافعٍ
إليْهِ ، ويرجو الشُّكرَ منِّي لأحْمَقُ
شَفيعكَ فاشكُرْ في الحوائجِ إنَّهُ
يصُونُكَ عنْ مثلِها وهْو يخْلَقُ

فقالَ الرَّجلُ :

ـ فكيفَ ـ إذنْ ـ قالَ أبو تمَّامٍ ؟!

فقالَ دِعْبِلٌ :

ـ قالَ أبو تمَّامٍ :

فلَقِيتُ ـ بينَ يديْكَ ـ حُلوَ عطائهِ
ولَقِيتُ ـ بينَ يدَيَّ ـ مُرَّ سُؤالهِ
وإذا امرُؤٌ أسْدى إليكَ صنيعةً
مِنْ جاهِهِ ، فكأنَّها مِنْ مالِهِ

فقالَ الرّجلُ : أَحسَنَ واللَّهِ !!

فقالَ دِعْبِلٌ : كذَبْتَ .. قَبَّحكَ اللَّهُ ..

فقالَ الرَّجلُ :

ـ واللَّهِ ، لئنْ كانَ أخذهْ منكَ .. لقدْ أجادَ ، فصارَ أَولَى بهِ منكَ ، وإنْ كنتَ أَخذْتَهُ منهُ .. فما بلغْتَ مبلَغَهُ .

فغضبَ دِعْبِلٌ ، وقام .

بقِيَ أنْ نقُولَ .. إنَّ هناكَ خبَراً تناقلتْهُ بعضُ المصادرِ ـ لوْ صَحَّ ..

---

(٦٦) الأغاني ص ٦٢٣٢ .
وراجع : أخبار أبي تمام ص ٦٣ ، ٦٤ .
وانظر : ديوان أبي تمَّام ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

يكُونُ أَبُو تمَّامٍ سارقاً ـ لا محالةَ ؛ لأنَّهُ أخذَ الأشطارَ بنصِّها ، بحيثُ يكادُ الحافرُ يقعُ على الحافرِ ، يروي ابنُ حمَّادٍ .. فيقُولُ : (٦٧)

" ... ، كنَّا عند دِعْبِلٍ ـ أنا والقاسم في سنةِ خمْسٍ وثلاثينَ ومِئتينِ ـ بعدَ قُدُومِهِ منَ الشَّامِ ، فذكرْنا أبا تمَّامٍ ، فجعَلَ دِعْبِلٌ يثْلبُهُ .. ويقُولُ : إنَّهُ سَرُوقٌ للشِّعر .. ثُمَّ قالَ لغلامِهِ :

ـ يا ثقيف ، هاتِ تلكَ المخلاَةَ ..

فجاءَ بمخلاَةٍ فيها دفاترُ ، فجعلَ يُمِرُّها على يدِهِ ، حتى .. أخرجَ منها دفتراً ، فقالَ :

ـ اقرأُوا هذا !!

فنظرْنا .. فإذا في الدَّفترِ :

ـ قالَ مِكْنَفٌ أبو سُلْمَى ـ مِنْ ولدِ زُهيرِ بنِ أبي سُلْمَى ـ وكانَ هجا ذُفافةَ العبْسيَّ بأبياتٍ منها :

إنَّ الضَّراطَ بهِ تصاعَدَ جَدُّكم
فتعاظَمُوا ضرطاً بني القعقاعِ

ثُمَّ ماتَ ذُفافَةُ ـ بعدَ ذلك ـ فرثاهُ مكنفٌ بقولِهِ :

أَبعْدَ أبي العبَّاسِ يُستعْذبُ الدَّهرُ؟!
فما بعدَهُ للدَّهرِ حُسْنٌ ، ولاَ عُذْرُ
ألاَ أيُّها النَّاعي ذُفافةَ ، والنَّدَى
تَعِسْتَ ، وشُلَّتْ مِنْ أَناملِكَ العشْرُ
أتنعي لنا مِنْ قيْسِ عيلاَنَ صَخرةً؟!
تَفَلَّقَ عنها مِنْ جبالِ العِدا الصَّخْرُ
إذا ما ـ أبو العبَّاسِ ـ خَلَّى مكانَهُ
فلاَ حَملَتْ أُنثَى .. ولا نالَها طُهْرُ
ولاَ أمطرتْ أرضاً سماءٌ ولا جرَتْ
نُجُومٌ ، ولاَ لَذَّتْ لشاربِها ـ الخمرُ
كأنَّ بني القَعْقاعِ .. يومَ مُصابِهِ
نُجُومُ سماءٍ .. خرَّ مِنْ بينِها البدرُ
تُوُفِّيَتْ الآمالُ .. يومَ وفاتِهِ
وأصبحَ في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ

---

(٦٧) الأغاني ص ٦٢٤٦ ، ٦٢٤٧ .
وراجع : أخبار أبي تمام ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .
والموازنة ص ٦٤ ، ٦٥ .
وانظر : ديوان أبي تمّام ص ٣٥٥ وما بعدها .

ثمَّ قالَ :

ـ سَرَقَ أبو تمَّامٍ أكثرَ هذه القصيدةِ وأدخلَها في قصيدَتِهِ ، التي يرثي بها مُحَمَّد بن حميدٍ الطُّوسيِّ :

كَذَا.. فليَجلَّ الخطبُ وليفدحْ الأمرُ
فليسَ لعينٍ لم يفضْ ماؤُها عذْرُ

تُوُفِّيَتْ الآمالُ .. بعْد مُحَمَّدٍ
وأصبْحَ في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ

كأنَّ بَني نَبْهانَ .. يومَ وفاتِهِ
نُجُومُ سماءٍ.. خَرَّ منْ بينِها البدرُ

وأيًّا ما كانَ الأمرُ .. فإنَّنا نُحسُّ أنَّ هذا الخبرَ يكادُ يَشِي بأماراتِ كذبِهِ واختلاَقِهِ ، فلمْ يكنْ أبُو تمَّام منَ البلاَهةِ والغفلَةِ ، بحيثُ يضعُ سُمعتَهُ وشعرَهُ في مَنْشبِ مخالبِ أَعدائه ، إذْ ينقُلُ الألفاظَ نَفسها ، ومِنْ ثَمَّ .. فإنَّنا نظنُّ أنَّها مُؤامرةٌ مُدبَّرةٌ ، ومكيدَةٌ مصنوعةٌ ، ولقد اختار دِعْبَلٌ قصيدَةَ رثاءِ ابنِ حميد ؛ لأنَّها مِنْ عيُونِ قصائدِ أبي تمَّامٍ .

وقد يُستأنسُ لهذا الذي نظنُّ .. بما قالَهُ الحسنُ بنُ وهْبٍ : (٦٨)

" ... ، أمَّا قصيدةُ مكنفٍ هذه فأنا أعرفُها ، وشعرُ هذا الرَّجل عندي ، وقد كانَ أبُو تمَّامٍ يُنشِدُنيه ، وما في قصيدتِهِ شيءٌ ممَّا في قصيدةِ أبي تمَّام ، ولكنَّ دِعْبلاً خلطَ القصيدتين ؛ إذ كانتا في وزنٍ واحدٍ ، وكانتا مرثيَّتَيْنِ ؛ ليكذِبَ على أبي تمَّامٍ ... " .

ونخلصُ .. إلى أنَّ جُلَّ ما ذكرَ عنْ سرقاتِ أبي تمَّامٍ .. هيَ منْ قبيلِ المماحكاتِ النَّقديَّةِ التي لا تُجدي ، والتي روَّجَ لها أعداءُ الرَّجلِ ، منَ النُّقَادِ والدَّارسينَ ، الذينَ لا همَّ لهم إلاَّ التَّشهير بأربابِ النَّجاحِ .. بل إنَّها ـ إنْ شئتَ ـ ادعاءاتٌ مُغرضةٌ فاسدةٌ ، ولا عائدَ يُرجَى منْ ورائها .

(٦٨) راجع : أخبارَ أبي تمام ص ٢٠١ .

ثالثاً - حولَ توليد المعاني :

بَدَتْ اللُّغةُ العَربيّةُ - ولغةُ الشّعر بالذاتِ - إبّانَ العُصورِ العباسيّةِ .. وكأنّها في حاجةٍ إلى عبقريّةٍ فريدةٍ مثلِ أبي تمّامٍ ، تعيدُ شبابَ اللُّغةِ ، وتضخُّ الدّماءَ الحارّةَ في شرايينِها ، فتُولِّدُ المعاني ، وتَغوصُ وراءَها ؛ كيْ تسترَ نقصَ اللُّغةِ ، فيما يقُولُ قُدامةُ بنُ جَعْفَر : (٦٩)

" ... ، فألفاظُ العربِ أكثرُ مِنْ معانيهم ؛ ومِنْ ثَمَّ .. كانتْ حاجتُهم الماسَّةُ إلى الاستعارةِ والمَجاز ، كي يتوصَّلُوا بها إلى معانٍ جديدةٍ ... " .

وبينَ زحامِ المشاعر الفيّاض في نَفْسِ أبي تمّامٍ ، وعجْزِ اللُّغَةِ عَن الوفاءِ بها ، وظهُورِها - أحياناً - بمظهر التّخلُّفِ الحضاريّ ، كانَ على الرّجلِ أنْ يعَذِّبَ ألفاظَهُ مِنْ أجلِ معانيهِ ..

" ... ، ويُتْعِبَ نفسَهُ ، ويكدَّ طبعَهُ ، ويُطيلَ فكرَهُ ، ويعملَ المعاني ، ويستنبِطَها ، ... " (٧٠)

" ... ، ولأبي تمّام استخراجاتٌ لطيفةٌ ، ومعانٍ طريفةٌ ، ... ... وهو صحيحُ الخاطر ، حسنُ الانتزاع ، وما أشبَّهُ أبا تمّام إلاّ بغائص ، يخرجُ الدُّرَّ والمَخْشَلَبَةَ ... " . (٧١)

ويُنشدُ إبراهيمُ الصُّوليُّ .. أبياتَ أبي تمّام : (٧٢)

بيُمْنِ أبي إسحاقَ طالتْ يدُ الهُدَى
وقامتْ قناةُ الدِّينِ ، واشتدَّ كاهلُهْ

---

(٦٩) نقد الشعر - قدامة بن جعفر ص ٢٥ طبع الجوائب - الآستانة ١٣٠٢ هـ .
(٧٠) أخبار أبي تمام ص ١١٨ .
(٧١) المصدر السابق ص ٩٦ ، ٩٧ .
والمخشلبة : خرزٌ أبيضُ يشبهُ اللُّؤلؤ .
(٧٢) المصدر نفسه ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
وانظر : ديوانَ أبي تمام ص ٢١٩ .

هوَ البحرُ، مِنْ أيِّ النَّواحي أتيتَهُ
فلُجَّتُهُ المَعرُوفُ ، والجُودُ ساحلُهْ
تَعوَّدَ بسطَ الكَفِّ ، حتَّى لو انَّهُ
ثَناها لقبضٍ .. لمْ تُطعْهُ أناملُهْ

ثُمَّ يقُولُ لجليسِهِ القاسمِ أبي ذَكوان :
ـ أما تسمعُ يا قاسم ؟!!
إنَّ أبا تمَّامٍ اخترَمَ وما استَمتَعَ
بخاطرِهِ، ولاَ نزحَ رُكيٍّ فكرهِ،
حتَّى انقطعَ رِشاءُ عُمرهِ .

جاءتْكَ مِنْ نظمِ اللِّسانِ قلادَةٌ
سِمْطانِ ، فيها اللُّؤْلُؤُ المكنُونُ
أمَّا المعاني .. فهي أبكارٌ إذا
نُصَّتْ ، ولكنَّ القوافيَ عُونُ

وليسَ أحدٌ منَ الشعراءِ .. يعملُ المعاني ويخترعُها ، ويتَّكئُ على نفسِهِ فيها ـ أكثرَ مِنْ أبي تمَّامٍ ، ومتَى أخذَ معنًى زادَ عليهِ ، ووشَّحَهُ ببديعهِ ، وتَمَّمَ معناهُ ، فكانَ أحقَّ بهِ .

ذلكَ .. أنَّ أبا تمَّامٍ خرجَ على النَّاسِ بنوعٍ منَ الشعرِ، أخرجَهُ مِنْ رأسِهِ ، لاَ مِنْ قلبِهِ ، فهوَ يغوصُ على المعاني العقليَّةِ غوصاً ، ثُمَّ يرفعُها إلى السَّماءِ ، ويُعملُ فيها خيالَهُ البعيدِ ، ويختارُ لها الألفاظَ ، ويُعنَى ببديعِهـا وجناسِها ، فتَمَّ لهُ مِنْ معانيهِ العميقةِ إلى القاعِ ، وخيالِهِ المُرتفعِ إلى السَّماءِ ، وألفاظِهِ المُتجانسَةِ المُزَوَّقَةِ . (٧٣)

يقُولُ عمارةُ بنُ عقيلٍ : (٧٤)
ـ للَّهِ دَرُّ أبي تمَّامٍ ..
لقد وجدَ ما أضلَّتْهُ الشُّعراءِ ..
حتَّى .. كأنَّهُ كانَ مَخبُوءًا له .

ومهما يكنْ مِنْ أمرٍ.. فإنَّ أبا تمَّامٍ كانَتْ لهُ وجهةُ نظرهِ الخاصَّةُ بالشعرِ والقائمةُ ـ أساساً ـ على أنَّهُ مُعاناةٌ ، ونَحتٌ في مَحجَرِ اللّغةِ ، ووقُوفٌ على أكتافِ السابقينَ ، ومِنْ أجلِ الوصُولِ

---

(٧٣) راجع : تقديم الأستاذ أحمد أمين لكتاب " أخبار أبي تمام " ص أ هـ .
(٧٤) أخبار أبي تمام ص ٩٦ .

إلى بعضِ معانيهِ ، كانَ يُكثِّفُ لغتهُ ، ألفاظَهُ وتعابيرَهُ ، ثمَّ يقطِّرُها تقطيراً ، لكي يضَعَ ببديعِ ابتكاراتِهِ توقيعَهُ الخاص على عوالم شعريَّةٍ .. اكتسبها بالكَدْحِ الشّديد ، والمُعاناةِ المُرهِقَةِ ، بحيثُ يُعطي لمعانيهِ لَمْسَةً جديدةً ، تُحدِثُ لفكرِ المتلقِّي رعشةً سخيَّةً ، وإنَّ الناسَ ليُدهشُون .. مِنْ عمق المعاني العقليَّةِ ، التي قد تفاجئهم بما لم يتعوَّدُوهُ .

قَدِمَ عمارةُ بنُ عقيلٍ بغدادَ ، فاجتمعَ أربابُ الفُنُونِ إليهِ ، كلٌّ يعرضُ بضاعتَهُ ، وفيهم الرّوّاةُ ، والشعراءُ والنقّادُ ، فقالوا لهُ : (٧٥)

ـ ها هنا شاعرٌ ..
يزعُمُ قومٌ أنَّهُ أشعرُ النَّاسِ طرًّا
ويزعُمُ غيرُهم ضدَّ ذلكَ ..
فقالَ عمارةُ :

ـ أسمعُوني شعرَهُ .
فأنشدُوهُ :

غدَتْ تستجيرُ الدَّمْعَ خوفَ نَوَى غدٍ
وعادَ قَتاداً ـ عندها ـ كلُّ مَرقدِ
وأنقذَها ـ مِنْ غمرةِ الموتِ ـ أنهُ
صُدُودُ فِراقٍ ، لاَ صُدُودُ تَعَمُّدِ
فأجرَى له الإشفاقُ دَمعاً مُورَّداً
منَ الدَّم ، يجري فوقَ خَدٍّ مُورَّدِ
هي البدْرُ يُغْنيها تودُّدُ وجهِها
إلى كلِّ مَنْ لاَقتْ وإنْ لمْ تَودَّدِ
ولكنَّني لمْ أحْوِ وَفْراً مُجمّعاً
فَفُزتُ بهِ ، إلاَّ بشَملٍ مُبدَّدِ
ولمْ تُعطني الأيَّامُ نوماً مُسكّناً
ألَذُّ بهِ .. إلاَّ بنَومٍ مُشَرَّدِ

فقالَ ابنُ عقيلٍ :
ـ للَّهِ درُّهُ ..
لقد تَقدَّمَ صاحبُكم ـ في هذا المعنى جَميعَ مَنْ سبقَهُ ، على كثرةِ

(٧٥) راجع : الأغاني ص ٦٢٣٠ ، ٦٢٣١ .
وانظر: أخبار أبي تمام ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .
وديوان أبي تمام ص ٩٨ .

.. القَولِ فيهِ ، حتى لقد حبَّبَ إليَّ الاغترابَ ..

.. هيهِ ..

فواصلَ المُنشدُ :

وطُولُ مُقامِ المَرءِ في الحيِّ مُخلقٌ
لديباجَتِهِ ، فاغْتَرِبْ .. تَتَجَدَّدِ
فإنِّي رأيتُ الشَّمسَ زيدتْ مَحبَّةً
إلى النَّاسِ أنْ ليسَتْ عليهم بسرْمَدِ

فصاحَ عمارةُ :

ـ كَمُلَ واللَّهِ ..

إنْ كانَ الشِّعرُ .. بجُودَةِ اللَّفظ ، وحُسْنِ المعاني ، واطِّرادِ المُرادِ ، واستِواءِ الكلامِ ، فصاحِبُكم هذا أشعرُ مَنْ سَمِعْتُ .

لقد شُغلَ أبُو تمَّامٍ ـ كثيراً ـ بقضيَّةِ المعنَى ، إلى حدِّ التَّعسُّفِ ـ أحياناً في توليدِهِ ، واستخراجِهِ بعنفٍ ، وهذا الذي جَرَّ الجدليينَ إلى التَّعصُّبِ ضدَّه ، فتناسَوا لـهُ كلَّ فضيلَـةٍ ، واستحالَتْ كلُّ إيجابيَّاتُ الشَّاعرِ ـ أمام مُلاحظاتهم إلـى سلبيَّاتٍ ، ووقـفَ المُتصـاولُونَ وجْهاً لوجْهٍ ، فريقٌ يدافعُ عنْ معاني أبـي تمَّـامٍ ، حتَّـى لـو كـانتْ رديئـةً متعسِّرةً ، وآخرُ يهدمُ معاني الرجلِ حتى لو كانتْ جيدَةً مواتيةً .

وكانَ طَبَعيًّا .. أنْ يحتَفِيَ أبُو تمَّـامٍ بـاللَّفظِ ، بيدَ أنَّ اعتنـاءَهُ بالأسـلُوب كانَ ـ أساساً ـ مِنْ أجلِ المعنَى الـذي يحملُهُ ، وصُولاً إلى ما يُسَمَّى جوامعَ الكَلِمِ ، بحيثُ يُجسِّدَ الحسَّ الحضاريَّ للعصُورِ العباسيَّةِ ، والنَّاسُ ـ آنـذاكَ ما كانُوا يتلاعَبُـونَ بالألفـاظِ ، وإنَّمـا الذي كانَ يُسكرُهم ـ حقًّا ـ هوَ المعنَى البعيدِ الغـورِ ، الـذي يـأخذُ بجمـاعِ العقـلِ ، فحيـنَ وصـلَ أبُـو تمَّـامٍ فـي إنشادِ مَمدُوحِهِ الحسَنِ بنِ رجاءٍ إلـى قولِهِ : (٧٦)

(٧٦) راجع : أخبار أبي تمام ص ١٦٧ وما بعدها .
والأغاني ص ٦٢٤٠ وما بعدها .
وانظر: ديوان أبي تمام ص ٢٣١ .

لاَ تُنْكِرِي عَطَلَ الكَريمِ منَ الغِنَى
فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمَكانِ العَالي
وتَنَظَّري خَبَبَ الرِّكابِ، يَنُصُّها
مُحْيِي القَريضِ إلى مُميتِ المالِ

انتفضَ الحسَنُ بنُ رجاءٍ واقفاً، وقال:

– واللَّهِ، لاَ أتْممتَها إلاَّ وأنا قائمٌ..

فقامَ أبُو تمَّامٍ لقيامِهِ، وأنشدَ حتى أتَمَّ القصيدةَ، ثُمَّ تعانقا وجلسا، فقال ابنُ رجاءٍ - في إعجابٍ:

– ما أحْسَنَ.. ما جَلَوْتَ هَذه العرُوس !!

فقالَ أبُو تمَّامٍ:

– واللَّهِ، لو كانتْ منَ الحُورِ العِينِ
لكانَ قيامُكَ أوْفَى مُهُورِها.

وهكذا.. دارتْ رَحى حربٍ طاحنةٍ بينَ فئتينِ، فئـةٍ تناصرُ أبا تمَّامٍ، وتغوصُ معَ شَطحاتِ معانيهِ إلى الأعماق، وفئـةٍ تهدمُ الرَّجُلَ، ولاَ تَرَى لهُ منَ المعاني الجيدة، إلاَّ ما يُعَدُّ على أصابعِ اليدِ الواحدة، يقُولُ أبُوعليٍّ السِّجستانيُّ: (٧٧)

"... ، إنَّهُ ليسَ لهُ معنًى انفردَ بهِ، فاخترعَهُ، إلاَّ ثلاثَةُ معانٍ، وهي قولُهُ يمدحُ الحسنَ بنَ وهبٍ:

تأبَّى على التَّصريدِ إلاَّ نائلاً
إلاَّ يكنْ ماءً قَراحاً.. يُمْذَقِ
نَزْراً كما استكْرَهتَ عائرَ نَفحةٍ
مِنْ فأرَةِ المسكِ التي لمْ تُفْتَقِ

وقولهِ.. في رثاءِ هاشم الخزاعي:

بني مالكٍ قد نبَّهتْ خاملَ الثَّرَى
قُبُورٌ لكم، مُستشرفاتُ المَعالمِ
رَواكدُ قِيدَ الشِّبْرِ مِنْ متناولٍ
وفيها عُلًى لاَ تُرتَقَى بالسَّلالمِ

ثُمَّ قولُهُ منْ قصيدةٍ يمدحُ فيها أحمدَ بنَ أبي دُؤادٍ:

(٧٧) الموازنة ص ١٢٣، ١٢٤.
وانظر: ديوان أبي تمام ص ١٩٩، ٣٧٥، ٨٥.

وإذا أرادَ اللَّــهُ نَـشْرَ فَـضِيلَـةٍ
طُويتْ ، أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولاَ اشتعالُ النَّار فيما جاورَتِ
ماكانَ يُعرَفُ طيبُ عَرفِ العُودِ

وهذا غلوٌّ سافرٌ، وإفراطٌ في الادعاءِ الظالمِ ، وتجاوزُ وجهِ الحقِّ انتصاراً لفجُور الخصُومةِ ، وسبحانَ اللَّهِ .

والآخرُونَ المغالُونَ في تفضيلِهِ ، وما أكثرهم ، فإنَّهم نسبُوا إليـهِ كـلَّ معنًى بديعٍ ، وكـلَّ رؤيـةٍ مبتكـرة ، يقُولُ ابنُ الأثير: (٧٨)

" ... ، غربلْتُ الأشعارَ - قديمَها ومُحدثَها - وتأمَّلْتُها بـأمل المُنتقد ، فما وجدتُ لشاعر ما لهذين الرَّجلين في بـابِ المعـاني .. أبُــو تمَّــام والمُتَنبي ... " .

ويقُولُ : (٧٩)

" ... ، أبُو تـمَّام .. ربُّ معـان ، وصيقلُ ألْبابٍ وأذهانٍ ، وقد شُهد له بكلِّ معنًى مُبتكَـر ، لم يمش فيهِ على الأثَر ... " .

ولعمري .. إنَّ كلَّ هذا مِن تداعيات الجدَلِ الممقُوتِ حولَ ابن أوسٍ ، وما أفادَ الأدبُ والنَّقدُ مِنْ هذا كثيراً .

*** *** ***

رابعاً - حولَ الغُمُوض :

أكثرُ النَّاسِ - وبعضُ النُّقادِ - يكادُونَ لا يفهَمُونَ شعرَ أبي تمَّامٍ علـى وجهـهِ الصَّحيحَ ، والإنسانُ عدُوٌّ لِما يجهلُ ، أوْ هوَ عدوٌّ ما يَجُرُّ عليهِ سمعةَ الجهل ، وعدمِ الدِّرايةِ بمقاصدِ الشِّعر ، خاصَّـةً إذا كانَ مِنْ هؤلاءِ المُتآدبينَ ، الذيـنَ يتظاهَرُونَ أمامَ الجمهُورِ العربيِّ بالعلم والمعرفةِ ، ويملأُونَ أشداقَهم بكلماتٍ فارغةٍ متـقَعِّرةٍ ، أولئكَ الذينَ يرفضونَ شعرَ أبي تمَّامٍ سَدًّا لبابٍ لوْ فُتحَ عليهم

(٧٨) المثل السائر - ابن الأثير ج١ ص٦٢ - تحقيق د. أحمد الحوفي - دار نهضة مصر .
(٧٩) المصدر السابق ج٢ ص ٨ ، ٩ .

ضاعَتْ هيبَتهم ، وفقدُوا مكانتَهُم بينَ العامَّة ، سألَ رجلٌ أبا تمَّام : (٨٠)

ـ يا أبا تمَّامٍ ..
لِمَ لاَ تقُولُ منَ الشّعرِ ما يُعرَفُ؟!

فردَّ أبُو تمَّامٍ :

ـ وأنتَ .. لِمَ لاَ تعرِفُ منَ الشّعرِ
ما يُقَالُ ؟!

إنَّ قضيَّةَ المعاني في شعرِ أبي تمَّامٍ والغَوْصَ إليها ، وتوليدَها ، تتداعَى بطبيعةِ الحال ـ معَ قضيَّةِ الغُمُوضِ ، لكنَّهُ ـ هنا ـ غمُوضٌ مقصُودٌ ، يأتي نتيجةً لثقافةِ أبي تمَّامٍ الواسعةِ ، وانتفاعِهِ الكبيرِ بالأمثالِ العربيَّةِ ، والحكمِ المتوارثةِ عبرَ القُرونِ ، والأساطيرِ، والمُعتقداتِ الشّعبيَّةِ ، كلُّ ذلكَ كانَ منَ الغزَارةِ .. بحيثُ يمكنُ القَولِ إنَّها منَ المُكوِّنات الرَّئيسةِ لشعرهِ ، استمعْ إليهِ يقُولُ : (٨١)

تسعُونَ ألفاً كآسادِ الشَّرَى نَضِجَتْ
جُلُودُهم ـ قبلَ نضْجِ التِّينِ والعِنَبِ

فقد كانَ وقْتُ فنائهمْ ـ كما أرهصتْ نُبوءةِ مُنجِّميهم ـ زمَنَ نضجِ التينِ والعنَبِ ، ذلكَ .. أنَّ الرُّومَ قالُوا وقد أناخَ عليهم المُعتصمُ في عَمُوريَّةَ :

ـ لا يفتَحُ حصننُا إلى زمانِ التِّينِ
والعِنَبِ !!

فبلغَ ذلكَ المُعتصمَ ، فقالَ :

ـ أمَّا إلى وقتِ التِّينِ والعِنَبِ ..
فأرجو أنْ ينصرَني اللَّهُ قبلَهُ .

ونصَرَهُ اللَّهُ فعلاً ..

وعلى ذلكَ .. يكُونُ الكلاَمُ على سبيلِ السُّخريَةِ منَ العرَّافينَ ، وعلى وجهِ التَّقريعِ والشَّماتةِ بالرُّوم ، فليسَ في البيتِ ـ إذن ـ غمُوضٌ أو بُرودٌ كما ادَّعَى الجدِلُونَ .. يقُولُ الصُّولي : (٨٢)

---

(٨٠) أخبار أبي تمام ص ٧٢ .
(٨١) أبوتمام وقضيَّة التجديد في الشعر ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٨٢) أخبار أبي تمام ص ٤ .

" ... ، وما يتضمَّنُ أحدُ القيامَ
بشعر أبي تمَّام ، والتَّبيين لمُرادِهِ ،
بلْ لاَ يجسرُ على إنشادِ قصيدَةٍ
واحدَةٍ لهُ ؛ إذْ كانتْ تَهْجُمُ - لاَبُدَّ
على خبرٍ لمْ يَرْوِهِ ، ومثَلٍ لمْ يسمعْهُ ،
ومعنًى لمْ يعرفْ مثلَهُ ... " .

يمدَحُ أبُو تمَّامٍ أحمدَ بنَ أبي دُؤادٍ ..
ويُومئُ - في اعتذارِهِ لهُ - إلى بعضِ
الحوادثِ والأخبارِ ، التي لا يقعُ تفسيرُ
مراميها إلاَّ لمنْ يحفظُها ، يقُولُ : (٨٣)

وغَداً .. تبَيَّنُ ما بَراءَةُ ساحَتي
لوْ قد نفضْتَ تهائمي ونُجُودي
هذا الوليدُ رأى التَّثَبُّتَ بعدَما
قالُوا : يزيدُ بنُ المُهلَّبِ مُودي
نَفْسي فِداؤُكَ .. أيُّ بابُ مُلِمَّةٍ
لمْ يُرمَ فيهِ - إليكَ - بالإقليدِ
لمَّا أظلَّتْني غمامُكَ أَصبحَتْ
تلكَ الشُّهُودُ عليَّ وهْيَ شُهُودِي
مِنْ بعدِ ما ظَنُّوا بأنْ سيكُونُ لي
يَومٌ - ببغْيِهمُ - كيَومِ عَبيدِ

إنَّ غُمُوضَ أبي تمَّامٍ .. غُمُوضٌ شفَّافٌ ، لم يأتِ نتيجَةَ التَّشويشِ الروحيِّ ، أو ضعفِ التَّأليفِ ، وإنَّما يأتي منْ صفاءِ الذِّهنِ ، ورفاهةِ الثَّقافةِ ، والاستغراقِ في المُواءمَةِ بينَ معاييرِ الفنِّ ، ومتطلَّباتِ العصرِ ، هوَ غُمُوضٌ ذكيٌّ يُحسَبُ لفنِّهِ ، ولكن .. يأبَى المتعَصِّبُونَ إلاَّ أنْ يحسِبُوهُ عليهِ .

(٨٣) أخبار أبي تمَّام ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
وانظر : ديوان أبي تمام ص ٨٢ وما بعدها .
الوليد : يعني الوليد بن عبدالملك ، وقد هرب يزيد بن المهلب من حبس الحجاج ، واستجار بسليمان ابن عبدالملك ، وكتب الحجاج في قتله إلى الوليد ، فلم يزل سليمانُ وعبدالعزيز بن الوليد يشفعان له ، فقال الوليد : لابد أن تسلموه إليّ ، ففعلَ سليمانُ ، لكنه وجّه معه بأيوب ابنِه ، وقال له : لا تفارق يدك يده ، فإنْ أُريدَ بسوءٍ فادفع عنه ، حتى تقتلَ دُونَه .
عَبيد : يعني عبيد بن الأبرص ، وكان أولَ مَنْ لقي النعمانَ بن المنذر في يوم بؤسه ، فقتله .

وبذا .. تلاحَى النّاسُ في أبي تمَّامٍ ، فريقٌ يستحسنُ غُمُوضَهُ ، ويشايعُهُ فيهِ ، وفريقٌ يلعنُ غُمُوضَهُ ، ويسقطُ - مِنْ أجلِهِ - شعرَهُ ، يقولُ أحدُ المُناصرينَ لغُموضِ الشعر ، وهو أبُو اسحاق الصَّابي : (٨٤)

- أفخرُ الشعرِ .. ما غمضَ ، فلم يُعطكَ غرضَهُ إلاّ بعد مماطلةٍ منهُ .

بينما يعيبُ الآخرُونَ شعرَ الرَّجلِ ويزدرُونهُ ، يقُولُ أحدُهم لأبي تمَّامٍ ساخراً : (٨٥)

- تعمَدُ إلى دُرَّةٍ ، فتلقيها في بَحْرِ خُرْءٍ ، فمَنْ يخرجُها غيرُك ؟!

خامساً - حول إسْرافِهِ في البَديع :

أضْحَى البديعُ - في العصُور العبَّاسيَّةِ - جزْءًا لا يتجزَّأُ مِنْ نظامٍ عامٍ ، ينتظمُ الحياةَ الإسلاميَّة ، في شتَّى نواحيها ، ولم يكنْ - ثمَّةَ - كبيرُ فرقٍ بينَ البديعِ في الشّعرِ ، والبديعِ في التُّحَفِ ، والملابس ، والقُصُورِ ، والمجالسِ ، إنَّ بديعَ تلكَ الفترةِ ما كانَ حليةً - أو زخرفةً ، بلْ لعلَّهُ كانَ أساساً مُهمًّا في الصَّميمِ منَ الحياةِ .

وأبُو تمَّامٍ واحدٌ منَ المتلبِّسينَ بتلك الحياةِ ، عاشَ عصرَهُ ، وانفعَلَ بهِ ، وتجاوبَ معهُ ، فمالَ إلى البديعُ ، بل ربَّما أسرفَ فيهِ ، حتَّى أُخذَ عليهِ ، مِنْ أعدائهِ المترَبِّصينَ بهِ ، يقُول صاحبُ المُوازنةِ : (٨٦)

" ... ، إنَّ أبا تمَّامٍ يريدُ البديعَ .. فيخرُجُ إلى المُحال ... " .

ثُمَّ ينقلُ عن ابن المُعتزِّ .. أنَّ أوَّلَ مَنْ أفسدَ الشّعرَ مُسلمُ بنُ الوليدِ ، وتَبعَهُ أبُو تمَّامٍ ، فسلكَ - في البديعِ - مَذهبهُ ، وأسرفَ " إسرافَهُ في طلبِ الطِّباق

(٨٤) المثل السائر ج٢ ص ٤١٤ .
(٨٥) أخبار أبي تمام ص ٢٤٥ .
(٨٦) الموازنة ص ١٢٥ .

والتَّجنيس والاستعاراتِ ، وإسرافَهُ في التماس هذه الأبوابِ ، وتوشيح شعرهِ بهـا ، حتَّى صـارَ كثيرٌ مـنَ المَعاني التي أتى بها لاَ يُعرفُ ، ولاَ يُعلَمُ غرضُهُ فيها إلاَّ مع الكَدِّ والفكر وطول التَّأمُّل ، ومنهُ مـا لاَ يُعرفُ معناهُ إلاَّ بالظَّنِّ والحَدْس ، ولوْ كانَ أخذَ عفْوَ هذه الأشياء ، ولمْ يُوغلْ فيها ، وأوردَ منَ الاستعاراتِ ما قرُبَ في حُسْن ، ولمْ يُفحشْ ، لظننْتُهُ كانَ يتقدَّمُ أكثرَ الشعراء المتأخِّرين ، ولكنَّهُ شَرِهَ إلى إيرادِ كلِّ ما جاشَ بهِ خاطرُهُ ، ولجلَجَهُ فكرُهُ ، فخلطَ الجيِّدَ بالرَّديءِ ، والعيـنَ النَّـادرَ بـالرَّذل السَّـاقطِ ، والصَّوابَ بالخطأِ ، ... " .

ويقولُ الآمديُّ ـ أيضـاً .. مُـردِّداً عيبَ الإفراطِ في البديـع ، ومُشَـدِّداً على أنْ ليسَ عُذراً ورُودُهُ في أشعار المُتقدِّمين : (٨٧)

" ... ، وأمَّا المُتَـأخرُ الـذي يطبـعُ على قوالبَ ، ويحـذُو علـى أمثـلَةٍ ، ويتَعلَّمُ الشِّعرَ تعلُّماً ، ويأخذُهُ تلقُّنـاً ، فمِنْ شأنِهِ أنْ يتجنَّـبَ المذمُـومَ ، ولاَ يتَّبـع مَـنْ تقدَّمَـهُ إلاَّ فيمـا استُحسِـنَ منهم ، واستُجيدَ لهـم ، واختـيرَ مِـنْ كلامهـم ، ولاَ يُوقـعُ الاحتطـابَ والاستكثارَ ممَّا جاءَ عنهم ، ويجعلُهُ حُجَّةً لهُ وعذراً ؛ فإنَّ الشاعرَ يعـابُ كلَّ العيبِ إذا قصـدَ بالصَّنْعـةِ سـائرَ شعرهِ ، وبالإبداع جميعَ فنونِهِ ؛ فإنَّ مُجاهدةَ الطبع ، ومغالبـةَ القريحـةِ ، مُخرجَةٌ سهْلَ التَّأليفِ .. إلـى سُوء التَّكلُّفِ ، وشدَّةِ التَّعمُّل ... " .

ومهما يكنْ مِنْ أمرٍ .. فإنَّ الطَّائيَّ قد تَفرَّعَ فـي البديـعِ ، وأكـثرَ منـهُ ، فأحسَنَ وأساءَ ، وفسدَ شعرُهُ ـ أحياناً ونشِفَ ماؤهُ ، وتلكَ عُقْبى الإفراطِ ، وثمرةُ الإسرافِ .

---

(٨٧) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

ومِنْ قَبيحِ تشبيهاتِهِ .. قولُهُ : (٨٨)

لاتَسْقِني ماءَ المَلاَمِ ، فإنَّني
صَبٌّ ، قد استعْذبتُ ماءَ بكائي

وقد تندَّرَ أحدُ الظرَفاءِ - مِنْ أهلِ المجانةِ بهذا البيتِ ، وسخرَ من قائلِهِ ، حينَ أرسَلَ قارُورَةً إلى الطائيِّ ، ومعها قُصاصةٌ كتبَ فيها :

- ابعثْ - في هذهِ - شيئاً مِنْ ماءِ الملامِ !!

فكتبَ أبُو تمَّامٍ على ظَهرِ الوُرَيقَةِ :

- سأَبعثُ إليكَ ما طلبْتَ .. إذا بعثْتَ إليَّ بريشَةٍ مِنْ جَناحِ الذُّلِّ !!

يُروَى .. أنَّ أبا حاتمِ السجِستانيِّ أُنشدَ شعراً لأبي تمَّامٍ ، فاستحسَنَ بعضَهُ ، واستقبَحَ بعضاً ، ثُمَّ قالَ : (٨٩)

- ما أُشَبِّهُ شعرَ الرَّجلِ إلاَّ بثيابِ مُصقلاَتٍ خُلقانٍ ، لها رَوعةٌ ، وليسَ لها مُفَتَّشٌ .

***   ***   ***

سادساً - حولَ مطالِعِهِ :

سخرَ الجدلُونَ - كثيراً - مِنْ بعضِ مطالعِ الطَّائيِّ ، وكالَ لهُ المتعَصِّبُونَ عليهِ حتَّى أوجَعُوهُ ، وما أكثرَ ما قيلَ حولَ البدْءِ بـ " كَذا " في قولِهِ : (٩٠)

كَذاَ..فلْيَجلَّ الخطبُ ، وليفدح الأمْرُ
فليسَ لعَيْنٍ لمْ يفِضْ ماؤها عُذْرُ

بيدَ أنَّ أشدَّ هذه السُّخرياتِ إيلاَماً .. قولُ ابنِ المستكفي :

- كانَ يجبُ أنْ يأتيَ بعظامِ الرَّجلِ الذي يَبكِيهِ في وعاءٍ ، فيجعلُهُ بينَ يديْهِ ، ثُمَّ يقصُّ على الناسِ خبرَهُ ، فإذا أتى على خبرِهِ ، أومأَ إليهِ ، ثُمَّ قالَ :

---

(٨٨) ديوان أبي تمام ص ١٤ .
(٨٩) أخبار أبي تمام ص ٢٤٤ .
(٩٠) ديوان أبي تمام ص ٣٥٥ .

كَذاَ..فلْيَجلَّ الخطبُ ، وليفدح الأمْرُ

ويسخَرُون مِنْ قولِ ابنُ أوسٍ..

يمدَحُ عبدَ اللّهِ بنِ طاهرٍ : (٩١)

هنَّ عوادي يُوسُفٍ وصَواحبُهْ
فعزْماً فقدماً أدركَ السّؤلُ طالبُهْ

حيثُ يقالُ : إنَّ بعضَ النقادِ كانُوا يفرزُونَ أشعارَ أبي تمَّامٍ ، فلمَّا وقفُوا على هذهِ القصيدةِ .. طرحُوها معَ الشعرِ المنبُوذِ لسُوءِ مطلعها .

سابعاً ـ تعمُّدِ التّزْييفِ :

قصدُ التَّزييفِ ـ أو التَّزْويرُ.. واحدٌ مِنْ تَداعيات الجَدلِ المُؤسفةِ ، حولَ الشّاعر الطائيِّ ، ولكنْ .. ينبغي أنْ نتَذكَّرَ ـ دائماً ـ أنَّ مَذهبَ أبي تمَّامٍ في الشعرِ كانَ مُعيناً للشُرَّاحِ ـ والنُسَّاخ والرُّواةِ ـ على تحريفِهِ أو تصحيفِهِ .. وفي الوقتِ نفسِهِ .. أعطَى الفرصَةَ للجدلينَ ـ منَ الطّرفينِ ـ لكي يُزيِّفُوه بالمَحوِ والإثباتِ ..

لقد طلع عليهم ابنُ أوسٍ بشعرٍ يُغربُ في معانيهِ ، ويُوغلُ بُعْداً في دلالَاتِهِ ، وصوَّرَ لهم الغريبَ منَ الاستعاراتِ ، وأسرفَ في الجناسِ ، وفي الطِّباقِ ، وألوانِ البديعِ ..

كلُّ هذا ـ وأمثالُهُ .. ممَّا كَلَّتْ بهِ الأفهامُ ، وتعثَّرَتْ بهِ الأقلامُ ، وكثُرَ مِنْ أجلِهِ ـ الحَدْسُ بالتَّأويل ، جعَلَ قُرَّاءَهُ يغيِّرُونَ ـ أو على الأقلِّ.. يقبلُونَ التَّغييرَ ، وما أكثَرَ الرِّواياتِ التِّي تترَدَّدُ حولَ شعرِ أبي تمَّامٍ ، واستمعْ إليهِ يقُولُ : (٩٢)

حَتّى إذا مخَّضَ اللّهُ السِّنينَ لها
مَخضَ الحليبَةِ ، كانتْ زبدَةَ الحقَبِ

يُروَى :

ـ مخضَ البخيلَةِ ..

---

(٩١) ديوان أبي تمام ص ٤٧ .

(٩٢) ديوان أبي تمام ص ١٩ .

ـ مخضَ الثُّميلَةِ ..

ـ مخضَ الحليبِ فعادَتْ .

وقولَهُ : (٩٣)

مَطَرٌ يذُوبُ الصَّحوُ منهُ ، وبعْدَهُ
صَحْوٌ .. يكادُ منَ الغضارةِ يقطُرُ

يُروَى :

ـ مَطرٌ يذُوقُ الصَّحوُ ..

ـ مَطرٌ يمُوتُ الصَّحوُ ..

وهكذَا .

ومهما يكنْ مِنْ أمرٍ .. فإنَّ فُجُورَ الخصُومةِ مِنْ الشَّانئين ، وصخبَ المُلاَحاةِ حولَهُ بينَ المُختلفين .. أثَّرا كثيراً ـ في بعْثِ إرادةِ التَّصحيفِ والتَّحريفِ ، وشجَّعا ضعافَ النُّفوس منَ الفئتين على مُواصلةِ العبثِ بشعر الرَّجلِ .. آيةُ ذلكَ ما قالَهُ عليُّ بنُ الجَهمِ : (٩٤)

ـ إنَّ دِعْبلاً .. كانَ يكذبُ على أبي تمَّام ، ويضعُ عليهِ الأخبار .

ويقُولُ الصُّوليُّ : (٩٥)

ـ وقد رأيتُ ـ أعزَّكَ اللَّهُ ـ بعضَ هؤلاءِ الجَهلَةِ يُصَحِّفُ ـ أيضاً ـ على أبي تمَّامٍ ، ثُمَّ .. يعيبُ ما لمْ يقلْهُ أبُو تمَّامٍ قط .

وعلى الجهَةِ المقابلةِ .. ينبَغي ألاَّ ننسَى أنَّ المتعصِّبينَ لأبي تمَّامٍ .. كانُوا يغيِّرُونَ ـ أيضاً ـ شعرَهُ ؛ ليكُونَ لهم دليلاً على ما يرَوْنَ ، وسنداً يدَافعُونَ بهِ عن صاحبِهم ، وينتصِرُونَ بهِ على الفريقِ الآخرَ ، بل إنَّ بعضَ النقَّاد والرُّواةَ .. كانُوا يحذِفُونَ ـ عمداً ما قد يعسُرُ عليهم فهمُهُ ، ويعجزُونَ عن تأويلِهِ بوجهٍ منَ الوجُوهِ .

---

(٩٣) المصدر السابق ص ١٤٨ .

(٩٤) راجع : أبُو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٨١ وما بعدها .

(٩٥) أخبار أبي تمام ص ٥٦ .

ثامناً - تَوجُّسُ الشَّرِّ :

وكانَ مِنْ تداعياتِ هذا الجدلِ المُمِلِّ أنَّ أبا تمَّامٍ ظلَّ - طولَ حياتِهِ - يتوقَّعُ نَقْداً لاذعاً منَ مُستَمعيهِ ، ولذلك .. انطبعتْ شَخصيَّةُ الرَّجل على الفطنَةِ ، وسُرعةِ البديهَةِ ، وتوقُّدِ العقلِ ، والجوابِ الحاضرِ ، "... كانَ أبو تمَّام إذا كلَّمَهُ إنسانٌ ، أجابَهُ قبلَ انقضاءِ كلامِهِ ، كأنَّهُ كانَ عَلِمَ ما يقُولُ ، فأعَدَّ جَوابَهُ ... " . (٩٦)

لقدْ أوجَدَ تَوجُّسِ الشَّرِّ فيهِ نَوعاً منَ التَّرقُّبِ والحذَرِ ، خلَّفَ فيهِ شيئاً منَ القلَقِ ، ذلكَ .. الذي يجعَلُ صاحبَهُ دائماً - شاهراً سلاحَهُ ، متحفِّزاً للدفاعِ عن نفسِهِ ..

يُروَى .. أنَّهُ أُذنَ لأبي تمَّامٍ أنْ يدخلَ إلى مجلسِ الأمير أحمدَ بنِ المعْتَصِمِ ، وكانَ يحضُرُهُ - آنئذٍ .. صفوةَ مِنْ جلةِ الأدباءِ والحكماءِ ، فيهم .. يعقُوبُ بن إسحاق الكنديِّ ، الفيلَسُوفُ العربيُّ المشهور - في هذا المجلس الحافلِ ، أنْشَدَ أبُو تَمَّامٍ الأميرَ مِدحتهُ التي يقُولُ في مطلَعِها : (٩٧)

ما في وقُوفِكَ ساعةً مِنْ باسِ
تقضي ذمامَ الأربُعِ الأدراسِ
فلعَلَّ عَينَكَ أنْ تعِينَ بمائها
والدَّمعُ منهُ خاذِلٌ..ومُوَاسِي

إلى أنْ بلغَ قولَهُ :

أبليْتَ هذا المجدَ أبْعَدَ غايةٍ
فيهِ ، وأكْرمَ شِيمَةٍ ونِحاسِ
إقْدام عمرٍو ، في سماحةِ حاتِمٍ
في حلمِ أحنَفَ في ذكاءِ إياسِ

هنا .. اهتبَلَ الكندِيُّ الفُرصةَ للطَّعنِ على أبي تمَّامٍ ، والحطِّ مِنْ شعرِهِ ، وإيغارِ صدرِ الأميرِ أحمدَ عليهِ ، انتفضَ الفيلَسُوفُ واقفاً ، وصاحَ :

(٩٦) أخبار أبي تمام ص ٧٢ .
(٩٧) ديوان أبي تمام ص ١٦٢ وما بعدها .

ـ الأميرُ فوقَ مَنْ وَصفتَ ..

فأطرَقَ أبُو تمَّامٍ قليلاً ، ثُمَّ زادَ على البديهةِ بيتَيْنِ ـ ما كانا في القصيدَةِ :

لاَ تُنكرُوا ضَربي لهُ مَنْ دُونَهُ
مَثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والباسِ
فاللَّهُ قد ضَربَ الأقَلَّ لِنُورِهِ
مَثَلاً .. منَ المِشكاةِ والنِّبراسِ

فأكبَرَ الحاضرُونَ فطنَتَهُ ، وعجبُوا مِنْ سُرعَةِ إجابتِهِ .

ومرَّةً أُخرَى .. يُعابُ على أبي تمَّامٍ قولُهُ مِنْ قصيدَةٍ .. يمدَحُ بها أحمد ابن أبي دُؤادٍ : (٩٨)

شابَ رأسي ، وما رأيتُ مَشيبَ الرَّ
أسِ ، إلاَّ مِنْ فضلِ شَيبِ الفُؤادِ

فزادَ فيها منْ فَورِهِ :

وكذاكَ القُلُوبُ .. في كلِّ بُؤسٍ
ونَعيمٍ ، طلائعُ الأجسادِ

وأيًّا ما كانَ الأمرُ .. فقد تعدَّدَتْ كما رأيتَ ـ تداعياتُ هذا الجدلِ حولَ أبي تمَّامٍ ، ودارتْ ـ في أغلبِها ـ في غير قضيَّةٍ أو موضُوعٍ ، مجرَّدُ مماحكاتٍ سطحيَّةٍ ، تشبَّثَ فيها كلُّ فريقٍ برُؤاهُ ، حتى لو علِمَ أنَّهُ على الخطأ ، هيَ شطَحاتٌ علتْ فيها أصواتُ الجعْجَعَةِ الفارغةِ ، دونَ أنَ يربحَ فنُّ الشِّعر كبيرَ فائدةٍ ، ودونَ أنْ يتقدَّمَ النقدُ نحوَ نظريَّاتٍ جديدَةٍ ، أو معاييرَ فنيَّةٍ مستحدثَةٍ ، لمْ نخرُجْ إلاَّ بمُنازعاتٍ جدليَّةٍ سفسطائيَّةُ ، هدفُها التَّجريحُ بلاَ جنايةٍ ولا منقصَةٍ ، أو هدفُها المجاملةُ المُفرطةِ ، دونَ إحسانٍ حقيقيٍّ ملمُوسٍ .. يساندُه الدليلُ والبرهانُ ، معظَمُها ـ إذن .. مماحكاتٌ غيرُ نزيهةٍ ، ليسَ لها سندٌ منَ الموضُوعيَّةِ العلميَّة .

***　***　***

(٩٨) ديوان أبي تمام ص ٧٧ .
وراجع : أخبار أبي تمام ص ٢٣٢ .

مصادرُ البحثِ ومراجعُهُ

١ ـ أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ـ د. عبده بدوي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٥م .
٢ ـ أخبارَ أبي تَمّامٍ ـ أبو بكرٍ الصّولي ـ تحقيق : خليل عساكر وزميليْه ـ الطبعة الثالثة دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠م .
٣ ـ الأغاني ـ أبو الفرج الأصبهاني ـ تحقيق : إبراهيم الإبياري ـ مطابع دار الشعب .
٤ ـ تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة عبد الحليم النجار ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٤م .
٥ ـ تاريخ الشعر العربي حتي آخر القرن الثالث الهجريَ ـ د. نجيب البهبيتي ـ نشر دار الثقافة الدار البيضاء سنة ١٩٨٢م .
٦ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ طبع دار الشعب ـ القاهرة .
٧ ـ دراسات في الأدب العربيّ ـ جوستاف فون جرنباوم .
٨ ـ ديوان أبي تمام ـ الطبعة الثانية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٢م .
٩ ـ طبقاتُ الشعراء ـ ابن المعتز ـ تحقيق: عبدالستارفرّاج ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٦م
١٠ـ القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ـ د. توفيق الفيل ـ مطبوعات جامعة الكويت .
١١ـ المثل السائر ـ ابن الأثير ـ تحقيق د. أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر .
١٢ـ مروج الذهب ـ المسعودي ـ المطبعة البهية .
١٣ـ من حديث الشعر والنثر ـ د. طه حسين ـ القاهرة .
١٤ـ الموازنة بينَ الطائيين أبي تمام والبحتري ـ الحسن بن بشر الآمدي ـ تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ـ القاهرة .
١٥ـ الموشح ـ المرزباني ـ طبع السلفية ـ القاهرة ١٣٤٣هـ .
١٦ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي ـ طبع دار الكتب المصريّة القاهرة سنة ١٩٣٦م .
١٧ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ـ طَبع الجوائب ـ الآستانة ١٣٠٢ هـ .
١٨ـ نقد النّثر ـ قدامة بن جعفر ـ طبع لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر .
١٩ـ وَفَيات الأعيان ـ ابن خِلّكان ـ البابي الحلبي ـ مصر ١٢١٠هـ .
٢٠ـ صحيفة الجُمهوريَّة المصريَّة ـ العدد رقم ٢٣٢١ الصادر في القاهرة بتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦٠م .